

عمله في الرسالة

« أنا لا أعبأ بالمظاهر التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التي آججه إليها في الأدب إنما هي النفس الصرعية في دينها وفضائلها ؛ فلا أكتب إلا ما يعشها حبة وزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي بهت للدفاع عن القرآن ولفته وبيانه ... »
« الرافعي »



لم يعمل الرافعي في صحيفة من الصحف الدورية قبل أن يتصل حبله بالرسالة ؛ فإن مذهبه الأدبي لم يكن يعينه على ذلك ؛ وقد قدّمتُ القول عن طريقته في الكتابة ؛ وما يتسع الوقت لمن يكون هذا مذهبه في الإنشاء أن يعمل في صحيفة من الصحف تظهر لقراءها في مواعيد رتيبة ...

على أنه كان يكتب قبل ذلك مقالات لليلال والمقتطف وغيرها في فترات متباعدة إذا وجد في نفسه حافزاً للكتابة ، أو إذا دعت صحيفة من الصحف إلى إنشاء مقال يراه حقيقاً بالكتابة ...

فلما دعت الرسالة إلى الاشتراك في تحريرها وحددت له عمله وجزاءه ، تردد في الجواب ؛ لكنه لم يلبث أن لبّي نداءها ، لعله يستعين بما يحصل من أجر الكتابة في الرسالة على أمر من أمره ...

كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب في جامعة ليون - فرنسا - على نفقة جلالة الملك ، ولكن الإبراشي باشا لأمر ما ، قطع عنه المعونة الملكية وليس بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ؛ فحمل الرافعي بذلك من الهم ما حمل ، إذ لم يكن له طاقة مالية تعينه على الإنفاق على ولده في فرنسا ؛ فمن ذلك أجاب « الرسالة » إلى ما طلبته ... !

كان ذلك في ربيع سنة ١٩٣٤
فظل يكتب لها كل أسبوع مقالة أو قصة ؛ لا يفتر عن هذا الواجب إلا أن يمنعه
المرض أو تشغله شاغلة من شواغل الحياة ، ومات وهو يتهيأ لكتابة مقالته
الأسبوعية ، ولكن القضاء عاجله فخلفها على مكتبه ورقة بيضاء ... !
وسأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن كل مقالة من المقالات التي أملاها
على الرافعي في الفترة التي صحبته فيها منذ بدأ العمل في الرسالة حتى صيف سنة ١٩٣٥ ؛
وما يجهل القراء أن كل مقالة يكتبها كاتب لها ظروفها وملابساتها ودوافعها ،
وما يجهلون أن لكل كاتب عند كل مقالة يكتبها حالة نفسية خاصة يظهر أثرها
فيما يكتبه ، وإني لأعلم أن هذا التاريخ لا يتم تمامه في نفسى ولا يتأدى مُؤداه
إلى قارئه على وجهه إلا أن أثبت بعض ما أذكر من دوافع الرافعي إلى كل مقال
مما أملاه على ؛ وإني بهذا الفصل لأحاول جديداً في فن الترجمة ؛ فما أعرف كاتباً
من كتاب التراجم في العربية حفل بهذا الباب في تاريخ الأدباء ، على أن له أثراً
أي أثر في دراسة أدب المترجم يعين على فهمه وتصويب الحكم عليه ؛ فن ذلك
كانت عنايتي بهذا الباب ، وإني لأرجو أن تعينى الذاكرة على تمامه حتى أبلغ
منه إلى ما أريد ...

لم يكن بين الرافعي والزيات صلة ما قبل صدور الرسالة ، إلا صلة الأديب
بالأديب ، وما أحسبهما التقيا قبلها قط إلا في كتبهما ورسائلهما . ثم صدرت
الرسالة فكانت بريد الأدباء عامة إلى الأدباء عامة ؛ وكانت بريد الزيات إلى الرافعي ،
فتعارفا وأتلفا وإن لم يلتقيا وجهاً لوجه ... ومضت أشهر ...

وتصفحتُ الرسالة ذات مساء من صيف سنة ١٩٣٣ ؛ فإذا فيها كلمة
عن « أوراق الورد » للزيات ، يجيب فيها فتاة سألتها أن يرشدها إلى شيء مما كتب
أدباء العربية في رسائل الحب . ومضت فترة وكتبت الفتاة « عفيفة السيد ... »
رأيها في أوراق الورد فعابته ونزلت به منزلة . وكان الرافعي في هذه الأثناء بعيداً

عن طنطا مصطفى في « سيدى بشر » ، وكان علىّ في هذه الفترة ، والرافى بعيد عن ميدان الأدب في مصطافه ، أن أجمع له كل ما يهمه أن يقرأ مما كتبت الصحف ؛ فلما قرأت ما كتب الزيات وما ردّت به الفتاة ، قصصه من صحيفته وبعثت به إليه في سيدى بشر ومعه رسالة منى ... وقرأ الرافى ما بعثت إليه ، فانتضى قلبه وكتب كلمة للرسالة يرد بها رأى الفتاة . وكانت كلمة قاسية لم يجدها صاحب الرسالة إلا فصلاً من « على السفود » لا تقوى على لدعائه الفتاة الناعمة . . . فطوى كلمة الرافى ، ونشر كلمة في الرسالة يعتذر بها إليه وإلى القراء ، ويرجوه بهذه المناسبة أن يكتب للرسالة شيئاً من منشور أوراق الورد ... ولم يجب الرافى هذه الدعوة إلا بعد بضعة شهر .

كانت كلمة الرافى إلى « عفيفة السيد » عن أوراق الورد هى أول ما أنشأ للرسالة من مقالاته ، ولم تنشر . ثم سعى إليه يوماً شاب من المرتزقين بمراسلة الصحف ، وكان الرافى يعطف عليه ويعينه على العيش بما يحسن إليه ؛ وإذ كان الرافى لا يملك أن يحسن إليه بالمال — والمال فى يده قليل — فإنه كان يحسن إليه بما يلى عليه من رسائل الأدب ، يأخذها فيبيعها إلى بعض المجلات فيستعين بما تدفع إليه من ثمنها على حاجات الحياة ، وهو ضرب من الإحسان على قدر طاقة الرافى !

... جاءه هذا الشاب يسأله ويطلب منه الجواب : « لماذا لا تعالج القصة ؟ »

وأملى عليه الرافى جوابه ، فذهب فنشره في الرسالة بعنوان « فلسفة القصة »

وكان أول ما نُشر للرافى في الرسالة^(١)

ثم كان عيد الهجرة بعد ذلك بقليل ، فطلبت الرسالة إلى الرافى أن يكتب فصلاً للعدد الممتاز ؛ فأنشأ مقالة « وحى الهجرة فى نفسى^(٢) » .

ومضى شهر ، وأهدى إليه الشاعر محمود أبو الوفا « ديوان الأعشاب » وكان

(١) العدد ٤٠ سنة ١٩٣٤ من الرسالة

(٢) العدد ٦٢ سنة ١٩٣٤ من الرسالة

مرجواً أن يكتب عنه ؛ إذ كان المقصود من طبع هذا الديوان — وطابعه غير صاحبه — أن يكون إعانة مادية لناظمه توسّع عليه ما ضاق من دنياه ... !

وقرأ الرافعي ديوان الأعشاب ... ثم هزّته أريحته إلى أن يكتب عنه ، تحقيقاً لرجاء الراجين فيه ، وبراً بصاحبه . وأبت كبرياؤه أن يكتبه مقالاً يُعَنّونه بعنوانه ويذيله باسمه ؛ فدعاني إليه واصطنع حديثاً بيني وبينه فأملاه على لينشر في الرسالة مذيّلاً باسمي ؛ وما كان بيني وبينه حديث في شيء ؛ ولكنها مقالة تواضعت من كبرياء فسماها حديثاً ... وأرضى كبرياه وعاطفته الرحيمة في وقت معا .

كان الرافعي في حرج وهو يعلّي على هذا الحديث ؛ إذ كان يخشى أن يناقض نفسه في الرأي وهو يكتب عن هذا الشعر رعاية لصديق ، ولكنه خرج من هذا الحرج بحسن احتياله ، فجعل أكثر مقاله عن الشعر بمعناه العام ورأيه فيه ومذهبه منه ؛ ثم خص الديوان بكلمات في خاتمة الحديث كانت هي خلاصة الرأي فيه ؛ وبذلك برى من الإسراف في المدح ومن الإيلام في النقد ، وخرج من الأمرين معاً إلى تحديد معنى الشعر ووسائله وغاياته . فأجاد وأفاد في باب من القول له منزلة ومقدار .

ونشر هذا الحديث في الرسالة ، ومضى شهر آخر ... ثم جاءه البريد ذات صباح بكتاب صاحب الرسالة ، يعرض عليه أن يكون معه في تحريرها ، وسمّى له أجراً ... وقبل الرافعي ، وما كان له بدٌّ من أن يقبل ... !

وشبيه بهذا اللون من (الإحسان) الأدبي برّاً ببعض ذوى الحاجات — مقدمة كتبها لكتاب اسمه (الفاروق — عمر بن الخطاب) ؛ ألفه مؤلفه وهو مدرس في إحدى مدارس الحكومة ، وسمى به إليه ليكتب له المقدمة ؛ وقرأ الرافعي الكتاب ، فلم يجد فيه ما يحفزّه إلى إجابة هذا الرجاء ، فردّ الكتاب إلى صاحبه معتذراً ؛ ولكن المؤلف عاد يرجوه ويستشفع إليه ؛ ويسط له من حاله ويصف حاجته ... وأثرت كلماته وما وصف من حاله في نفس الرافعي ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب كلمة بعنوان « عمر » ، لم يمرض فيها للكتاب ، ولا لموضوعه ، ولا لمؤلفه ،

ولكنها كلمة وجد فيها المؤلف طلبته ليصدر بها الكتاب وعليه اسم الرافى ...
... فهذه الكلمات الثلاث : فلسفة القصة ، وديوان الأعشاب ، وعمر
— وللرافى كثير من أمثالها — هى حسنات أدبية أنشأها على أنها لون من ألوان
البر والمعونة ، على مثال ما يتصدق ذوو المال بالمال !

وكانت أولى مقالات الرافى بعد ما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه ، هى مقالة
« لا تجنى الصحافة على الأدب ولكن على فنَّيته ^(١) »
وتوات مقالات الرافى بعد ذلك فى الرسالة ، فنشر فى الأسبوع التالى مقالة
« الاشراق الإلهى وفلسفة الإسلام » وأحسبه اختار هذا الموضوع — على انقطاع
الصلة بينه وبين الموضوع السابق — احتفاء بالولد النبوى ؛ إذ كان هذا موسمه
ثم نشر « موت أم » وهى صورة حية نابضة لصبئية فقدوا أمهم وما يزال
أكبرهم فى الثامنة ؛ وهى صورة حقيقية مرّت أمام عينيه فانفعلت بها نفسه ؛
أما هذه الأم فهى زوج صديقنا الأستاذ حسنين مخلوف ، وأما هؤلاء الصبئية
فبنوها ؛ اهتصرها الموت فى ريعانها فضت وخلفت وراءها أربعة ، فبكاهها الرافى
بكاء الوالد ؛ وما أعلم أنه مشى فى جنازة قبل جنازتها ، ودفنت فى مقبرة آل الرافى
بطنطا . ولما عاد الرافى من الجنازة ليعزى صديقه فى داره ، دعا بولده ليمسح على رأسه
ويسرّى عنه ، فكان بينه وبين عيني الطفل حديث طويل ؛ فما غادر مجلسه
إلا ورأسه يفيض بشتى المعانى وقلبه يختلج بفيض غامر من الألم ، وعيناه تترقق
فيهما الدموع !

وروح إلى داره فجلس إلى مكتبه يفكر ... ومضى يوم ثم أرسل يدعونى إليه
فأملى على « موت أم ! »

وكان الأسبوع التالى موعد امتحان الشهادة الابتدائية ؛ فكانت مقالته :
« حديث قطّين » . وإنها لتحدث بنفسها عن مناسبتها . وإن فيها شيئا من خلق

الرافعى لم يكن يعرفه إلا الخاصة من أصحابه ، ذلك هو طبيعة الرضا بما هو كائن ؛ فقد كان ذلك من أئزم صفاته له ؛ فكان دائماً باسمًا منبسط الوجه ، يقنع نفسه فى كل يوم بأنه فى أسعد أيامه ؛ فمن ذلك كان يحاول أن يجعل من كل ألم يناله لذة يُشعر بها نفسه ، ومن كل فادحة تنزل به خيراً يترقبه ويهيئ له . ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعى لم يكن يرى فى تلك العلة التى ذهبتُ بسمعه وما يزال غلاماً ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلى الذى أملى به فى تاريخ الأدب فضلاً لم يكتب مثله فى العربية منذ قرون ! ولا شىء غير الإيمان بحكمة القدر وقانون التعويض يجعل الإنسان أقوى على مكافأة أحداث الزمن فلا تأخذ منه النوازل بقدر ما تعطيه ... وذلك بعض إيمان الرافعى !

هذا الخلق هو المحور الذى كان يدور حوله الحديث الذى اصطنعه الرافعى على لسان القطّين ؛ وهو الذى حمّله من بعد على إنشاء مقالتي : « سمو الفقر » فى المديدين التاليين من الرسالة ؛ والشىء يُذكر بالشىء ؛ فلولا ما جاء فى امتحان الشهادة الابتدائية لذلك العام ، ما أنشأ الرافعى حديث قطّين ، ولولا ما ألهمه حديث القطّين من المعانى فى فلسفة الرضا ما أنشأ مقالتي : « سمو الفقر » ؛ ففى هذه المقالات الثلاث موضوع واحد اختلف عنوانه واتحدت عنايته وكانت مناسبة ما قدّمت ...

ثم أنشأ مقالة « أحلام فى الشارع » وقصتها أننى كنت أساهر الرافعى ليلة ، فلما انتهت السهرة صحبته إلى قريب من داره ، ومررنا فى طريقنا بدار (بنك مصر) ، وقد انتصف الليل ؛ فلما صرنا قبالة (البنك) وقف الرافعى هنيهة ليشهد منظراً استرعى انتباهه : طفل وطفلة من أبناء الشوارع نائمان على عتبة البنك ، وقد توسّدت الفتاة ذراعاً وألقت ذراعاً على أخيها ... ووقف الرافعى ووقفّت ... ورأى الشرطى ما رأينا فأمرع إلى الطفلين ...

وفى الغد أملى على الرافعى مقالة « أحلام فى الشارع ! »

... وكانت المقالة التالية « فى اللب ولا تحترق ! »

وهي المثلة الراقصة المغنية ف... وكانت تعمل في فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة بين الحواضر ، حلت مع فرقها في طنطا في صيف سنة ١٩٣٤ ، ولسبب ما لم يذهب الرافي إلى مصيفه في سيدى بشر هذا العام ، واستغنى عن البحر والمصيف بما قد يكون في طنطا من أسباب اللذات والرياضة ؛ وإن فيها لغناء وعوضاً وكنا ثلاثة من أصدقاء الرافي نسمر معه كل مساء (س ، ا ، ع) وجلسنا حوله ذات ليلة ، وكان متعباً مكدوداً يشعر بحاجته إلى لون من ألوان الرياضة يرد إليه نشاطه وانبساطه ؛ قال : « أين تقترحون أن نقضى الليلة ؟ »

قال ا : « إن في منزله البلدية فرقة تمثيلية ، هبطت المدينة منذ أيام ، وإن فيها لمغنية راقصة ؛ أحسبها خليفة بأن توحى إليك بفصل جديد من أوراق الورد ! » فطأ الرافي شفتيه ولم يعجبه الاقتراح ، وأحسب أن الصديقين ا وع كانا على رغبة مشتركة في هذه السهرة ، فما أحسّا رفض الرافي حتى قال ع : « ... ولكنها راقصة ليست كالراقصات إنها صوامة قوامة ، تصوم الشهر وستة أيام بعده ، وتقوم الليل إلا أقله ، وتصلي الخمس في مواعيد الخمس ؛ وما أحسب رقصها وغناءها إلا تسبيحاً وعبادة ... إنها ... ! »

مغنية وراقصة ، ولكنها صوامة قوامة ... يا عجيباً ! وهل في الراقصات كهذه التي يصفها الصديق العاثر ع ؟ .. ولكن الرافي صدق ، وعرف الصديق طريق الإقناع إلى قلب الرافي . واتفقنا على الرأي .

« هذه هي الراقصة التي أعنى .. » هكذا قال الصديق (ع) فاشرب الرافي ينظر من وراء الصفوف . لقد رآها ، ولكنها لم تكن أمام عينيه كما كانت في أعين الناس ... كانت تحت عينيه إنسانة أخرى لها طهر وقداسة واحترام ...

هذا الصدر الناهد ، وهذه الساق اللفاء ، وذلك القوام الأهيف ، وهاتان العينان الحاملتان ، وهذا الخد الناضر ، وهذه الشفة الباسمة ، وذلك الشعر اللامع .. هذه كلها سحر وفتنة ، تعترك حولها شهوات الرجال ، وتترامى إليها أمانى الشباب ؛ ولكن رجلاً واحداً بين النظارة لم يكن يبصر شيئاً من ذلك : رجلاً لم يكن أحد

فيمَن أعرف أضعف منه بإزاء سحر المرأة ، ولكنه الليلة شخص غير من أعرف .
ولكن هذه الراقصة بإزائه غيرها بإزاء الناس .. هي في عين الجميع (أنثى) فائنة ،
ولكنها بعينيه هو قديسة تستحق التبجيل والاحترام ...

كانت على عين الجميع راقصة تغنى ، وكانت بعينيه عابدة تسبّح وتصلى .. كان
الناس ينظرون إلى الراقصة وهي تفتن في إغراء الرجال بالنعمة والحركة والرّنوة .
الفائنة ، وكان الراقص ينظر في أعماق نفسه إلى صورة أخرى رسمها من خياله
فقامت حياله تريبه مالا يراه الناس !

وانفض السامرون إلا قليلاً تحلّقوا حول الموائد يقرعون كأساً بكأس ونهض
الراقص فيمن نهض ...

ومضى يومان ، ثم دعاني ليلى على مقالة « في الحب ولا تحترق ! »

ولما فرغ الراقص من شأن هذه المقالة ، دعا إليه بصديقه (ع) يستزيده من
خبر هذه الياقوتة الكريمة ، ويسأله الوسيلة إلى لقاءها إن كان بينهما سبب ، لعل
اجتماعاً بينهما وبين الراقص يفتق ذهنه عن موضوع جديد يكتبه لقراء الرسالة ؛
فابتسم الصديق (ع) وقد دبر في نفسه حيلة تجمع بينها وبينه ؛ وهل يُعجزه هو
— وهو من هو — أن يجد وسيلة لمثل هذا اللقاء ليمضي في مَرَحَتِهِ إلى النهاية ؟
وذهب (ع) يسأل عن الراقصة ويستقصي خبرها فعرف ...

لقد فرّت (الياقوتة) مع موسيقى الفرقة ، ومضى زوجها في أثرها ، فأنحلت
الفرقة وغادرت المدينة

وجاء النبأ إلى الراقص ؛ فما عرف إلا من بعد أنها كانت مريحة من الصديق .
ع فأسرّها في نفسه ...

وعاد الراقص إلى المقال يقرؤه منشوراً في الرسالة وهو يضحك ويقول :
« أهذا ممكن ؟ أهذا مما يكون ؟ أتكون في الحب ولا تحترق ؟ » .
فرد الصديق (ع) قائلاً : « لقد احترقت ! » .

وكانت كذبة ، ولكنها أنشأت مقالة لم أقرأ مثلها فيما قرأت من روائع الأدب العربي !

كان أكثر جلساء الرافعي في هذه الفترة هم الأصدقاء (س . ا . ع) ، فكان لهم سره ونجواه ، وإلى موعدهم مغداه ومراحه ؛ وكان حديثهم إليه وحديثه إليهم هو عنده مادة الفكر وموضوع الكتابة ؛ وكان لكل واحد من الثلاثة الأصدقاء في هذه الفترة مشكلة تملأ فراغ رأسه ، فهي له في الليل مشغلة وفي النهار مشغلة . أما (س) فكان على نية الزواج ، قد ترامت أمانيه إلى واحدة من أهله ، ولكن (التقاليد) وقفت بينها وبينه موقفاً ما ، أورثه ضجراً وملامة وسخطاً على الناس وتبرماً بالحياة وخروجاً على ما تواضع الناس عليه من التقاليد في شئون الزواج ...

وأما (ا) فكان في عهد بين عهدين من حياته : قد ودّع ماضيه بما فيه من عبث ومجانة ، وطلق شهواته إلى عهد يستشرف إلى ما فيه من المتاع الحلال في ظلّ الزوجة المحبوبة المحجّة ؛ فسّمى زوجته وعقد عقده ، ثم وقف ينتظر اليوم الذي يبني بأهله قللاً مجلان ، واليوم الموعود لا يحين لأن (التقاليد) تبعد به كلما دنا مواعده ...

وأما (ع) فشاب قد انفرد في الحياة من أهله : فقد أمه وهو غلام ، فما كاد يستوى شبابه حتى مضى يلتمس ما فقد منذ طفولته من حنان الأنثى ، فتزوج ، ثم فقد زوجه ؛ ثم تزوج ، فما بقيت الثانية إلا بمقدار ما بقيت الأولى ، ولكنها خلّفت بضعة منها بين يديه مصورة في طفلة سلبتها القدرة أمها يوم منحها الحياة ! ... هو أب ولا زوج له ، وهو عزبٌ وكانت له زوجتان ، وهو فتى يؤمن بالله ويلحد في القدر ، وهو شخصيتان منفصلتان تعرف إحداها في المسجد وتعرف الثانية في الشارع ؛ وله عين عفة وعين فاجرة ؛ وله في الحياة تجربة ورأى ؛ وله إلى الهوى والملاذات مثل اندفاع الشاب الذي لم يذق ولم يجرب بعد !

ثلاثة نفر لكل منهم رأيه في الحياة ومذهبه ، ولكنهم قد التقوا في مجلس
الرافعي على هوى واحد ، فأحلوه من أنفسهم وأحلمهم من نفسه ؛ فكان له من
أحاديثهم شعور الشباب ، ولهم من حديثه حكمة الشيخ ، وللأدب من كل مجلس
يجمعهم وإياه موضوع حي مما كتب الرافعي لقراء الرسالة ...

ومن هذه الموضوعات « قصة أب »

ذلك هو الصديق (ع) كان الله له ... !

جلس مجلسه يوماً إلى الرافعي يشكو بثه وهمه والدموع تترقق في عينيه ؛
واستمع الرافعي إلى شكاته متألماً حزيناً ؛ فما فرغ (الأب) من قصته حتى جمع
الرافعي (قصاصات) الحديث فجعلها في جيبه وجلس يتفكر ... ثم كانت « قصة أب »

وفي الأسبوع التالي كان زفاف إبنته إلى ابن أخيه في حفل أهلي خاص وصفه
الرافعي في مقاله « عرش الورد » ؛ وهو عرش نظمه بيده الأستاذ سامي الرافعي
لمجلس العروسين ، وجعل فيه فنّه وعاطفته نحو أخته وابن عمه وقدمه إليهما
هدية عرس

ولما جلس العروسان ذراعاً إلى ذراع في عرش الورد ، بارك لهما الرافعي ودعا ؛
ثم خرج ليمضي ساعات في القهوة . ولقيني هناك وحدي ، فانتحينا ناحية على حيد
الشارع لا يترامى إليها من أضواء القمر إلا شعاع حائل ؛ وكان الرافعي يؤثر دائماً
أن يجعل مجلسه على ذلك الرصيف في جانب من القهوة ، ويسميه « بلاج طنطا »
إذ كان انفساح الشارع أمامه ، وما يتعاقب عليه في الليل والنهار من ألوان الجمال
في الطبيعة والناس — مما يجبّب إلى العين أن تنظر ، وإلى النفس أن تنبسط ،
وإلى الفكر أن يبدع فيما يخلق من ألوان الجمال ...

وكان الليل ناعماً يحلم ، والطبيعة ساجية لا يُسمع من صوتها إلا همسٌ خافت ،
وفي الجو شعر يهزج في سرار النسيم وفي حفيف للشجر ، وعرائس الخيال تُطيف
لراقصة تنفح بالعطر وترفّ بالنور ... ولكن الرافعي جلس مجلسه صامتاً لا يتحدث ،

إلا كلمات إلى النادل يطلب كوب ماء ليشرب أو جرات للكركرة ... واحترمت صمته فسكت عنه ...

ومضت ساعة ، ثم رفع عينيه إلى وهو يقول : « الليلة عُرس ابنتي ... ! » ولم يسمع جوابي ، لأن دمعة كانت تترقق في عينيه وهو يتحدث حبستني عن الجواب ... !

دمعة لم أترجم معناها إلا بعد سنتين ، يوم جاءني يقول والدمع يلعب تحت أهدابه : « إن وهيبة مسافرة إلى زوجها في أمريكا ؛ ليس من الحق أن تبقى هنا وهو هناك ! »

ثم يوم جاءني بعدها يقول وفي يده صحيفة أمريكية : « انظر هذه الصورة ، إنهم يسمونه هناك : أصغر سائح مصري في أميركا ... إنه حفيدي الصغير ... ! » لقد كان الرافي يحب أولاده حباً لا أعرف مثله فيمن أعرف ؛ ووهيبة كبرى أولاده ، ذكرها في « الديوان » ، وغنى لها في « النظرات » وأرخ زواجها في « عرش الورد » .

وكانت المقالة التالية هي : « الإنسانية العليا » .

وهي باب من القول في الأدب الديني تنظم مع « وحى الهجرة » و « الإشراف الإلهي » و « سمو الفقر » تحت باب واحد ...

... كان يعتاد الرافي كما يعتاد كل إنسان ، نوبات من الضيق والهم تقعد به وتصرفه عما يحاول من عمل ؛ ولم يكن له علاج من هذا الضيق الذي يعتاده إلا أن يقرأ قرآناً أو ينظر في كتاب من كتب السيرة النبوية ، فينفرج همه ويؤول ما به ، ويهون عليه ما يلقي من دنياه ...

في نوبة من هذه النوبات التي تضيق بها الدنيا على إنسان ، تناول الرافي كتاباً من كتب الشرائع يسرّي به عن نفسه ، فاتفق له رأي ... وخرج من مطالعته بمقالة « الإنسانية العليا »

... وكان للرسائل التي ترد للرافعي في البريد من قراء الرسالة أثر يوحى إليه في أحيان كثيرة بما كتب لقرائه ، فهي منهم وإليهم ؛ فنذ بدأ الرافعي يكتب في الرسالة أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة في موضوعات شتى ولناسبات متعددة ، حتى كان يبلغ ما يصل إليه أحياناً في اليوم الواحد ثلاثين رسالة ؛ وكان يقرؤها جميعاً ويحفظها في درج خاص من مكتبه ؛ وللحديث عن هذه الرسائل باب آت ، إنما يعنني اليوم أن أحدث عن الموضوعات التي استملاها من رسائله . ومن هذه الموضوعات مقالة « تربية لؤلؤية »

كانت تصدر في القاهرة في ذلك الوقت مجلة (الأسبوع) وقد فتحت صدرها لطائفة من شباب الجنسين يكتبون فيها وحي عقولهم وقلوبهم و ... غرائزهم ، وكانت صفحاتها لهؤلاء الشبان والشابات أوسع من صدر الحليم ، فلم تلبث بهذه الساحة أن صارت — كما يقول العامة — بطن حمار ! وأصبحت ميداناً للغزل البريء وغير البريء ، وموعداً من مواعد التلاقى والوداع .

وفي ضبيحة يوم ، حمل البريد إلى الرافعي رسالة من سيدة كريمة ، تلفته إلى محاورة داعرة تعترك فيها أقلام طائفة من الشبان في مجلة (الأسبوع) . وبعث الرافعي في طلب أعداد المجلة فجاء بها ؛ فقرأها حتى تناول القلم وأملى على مقالة « تربية لؤلؤية »

في هذه المقالة ، خلاصة رأى الرافعي في حرية المرأة وحقها في المساواة ؛ وترى لهذا الرأي بقية فيما نشر من مقالات الزواج والطائشة ، والجمال البائس ، وغيرها ؛ وهو يزعم أنه بهذا الرأي من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة . وللرافعي حين يتحدث في هذا الموضوع حجة قوية وبرهان ماض ، إلى روح رفاقة وشعر ساحر . ولست واجداً أحداً يرد عليه في ذلك على قلة من تجمد من أنصاره ، وقد جلست مرة إلى الربى الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف نداول الرأي في أدب الرافعي ومذهبه الاجتماعي لمناسبة ما فيها كتب الرافعي للرسالة ، فقال لي : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك لن تجد أحداً

— أيضاً — يستطيع أن يصول الرافى فى هذا الميدان بمثل حجته وقوة إقناعه !
... وأرضى الرافى بهذا المقال السيدة الكريمة التى كتبت إليه ، ولكنه
أغضب مئات من القارئات وعشرات من القارئين ؛ فانتالت عليه الرسائل من هؤلاء
وهؤلاء غاضبة مستنكرة ، إلا بضعة رسائل ...

ولما كتب مقالة « تربية لؤلؤة » وأرسل بها ، ركب قطار البحر إلى الإسكندرية
ليستريح يوماً هناك ، يزود فيه لفنه وأدبه من عرائس الشاطئ * ... كان قد كتب
مقاله السالف وأرسل به ، ولكن معانيه بقيت فى نفسه ، فلما ذهب إلى الشاطئ *
وجد تمام موضوعه ، فعاد ليملى على مقالة « لحوم البحر » وهى قصيدة مترجمة
عن الشيطان على نسق من النثر الشعرى فاق فيه الرافى وغلب ...

كان للرافى عادةٌ حين يعجبه موضوع مما كتب أن يسأل عنه كل من يلقى
من أصحابه ... « هل قرأت مقالتي الأخيرة ... ؟ وما رأيك فيها ... ؟ هل يملك
أحد أن يعرض لراى فيها بالنقد ... ؟ »

وكان يمتدّ كثيراً بمقالة « تربية لؤلؤة » ، فى ذات مساء بعد نشر تلك المقالة
قصد إلى القهوة ليرى أعصابه ؛ فصادف الأصدقاء (س . ا . ع ^(١)) ؛ فما كاد
يستقر به المجلس بينهم حتى أخذ يسأل كل واحد : « هل قرأت ... ؟ ما رأيك ... ؟
هل يملك أحد ... ؟ »

كان للرافى فى كل واحد من أصدقائه الثلاثة رأى ، وكان لكل واحد
فى نفسه حقيقة ، ولهم فى الحياة نظرات تغرب وتقرب ؛ وكلهم قد حرموا المرأة
لونا من ألوان الحرمان ؛ ولكل منهم فى المرأة رأى ؛ مما تخيلها ، أو مما كابدها ،
أو مما شقى بها ...

والرافى رجل قد فارق الشباب وخلعه فيما خلع من ماضيه ؛ وإنه لزوج وأب

(١) ا و ع : هما الصديقان أمين حافظ شرف ، وعبد الله مزار ؛ وكانا زميلي الرافى
فى محكمة طنطا .

ويوشك أن يكون جَدًّا ؛ فلا قدرة له على أن يعود القهقري إلى ماضى شبابه يستوحيه خواطر الفتيان وأحلام الشباب فى المرأة والحب والزواج . وهؤلاء الأصدقاء — على ما قدّمتُ من نُعوتهم فى أول هذا الفصل — تجمعهم صفة العزوبة على اختلاف ألوانها ؛ وما يزالون فى باكر الشباب وفى يقظات الحلم ؛ وكلهم قد مارس المرأة نوعاً من المراس : فى وهمه أو فى حياته ...

فما كاد الحديث يبدأ بين الرافعى وأصدقائه حتى أخذ يتشعب فنوناً ، وساقهم الرافعى بحسن احتياله إلى هدف يرمى إليه ... فما انقض المجلس حتى كان ثلاثتهم على ميعاد مع الرافعى ليحييوه كتابة عن أسئلة وجهها إلى كل منهم ، على أن يلتزموا الصدق ، ويحاجبوا الحياء ، ويخلصوا فى الإجابة ؛ وكانت الأسئلة هى :
كيف ترى المرأة فى وهمك؟ وأين مكانها من حياتك؟ وماذا مارست من شأنها وعرفت من خبرها؟ لماذا لم تتزوج؟

وجاء الميعاد المضروب ، وسمى الأصدقاء الثلاثة إلى الرافعى بأجوبتهم ؛ فنها كانت مقالة الرافعى (س . ا . ع) وهى أولى مقالاته فى الزواج ؛ ثم تابعت مقالاته فى هذا الموضوع ، فخطابها إلى قلوب الشباب خطوات ، وكان بينهم وبينه من قبلُ سدٌّ منيع .

قبل أن يكتب الرافعى هذه المقالة بأيام ، جاءه رسالة من بعض الأدباء يسأله أن يكتب إليه فى أسباب أزمة الزواج ؛ استيفاء لبحث يهيم أن يصدره فى كتاب ... وأحسب أن هذا السؤال كان الحافز الأول للرافعى إلى الكتابة فى هذا الموضوع . وقد بعث الرافعى إلى السائل بجواب سؤاله ؛ وكان جواباً فيه كثير من الدقة والتحديد والعمق ، ولم أقرأه منشوراً منذ أرسله إلى طالبه .

...بدأ كثير من الشبان يهتمون بما كتب الرافعى ؛ إذ كان بهذا الموضوع يعالج مشكلة كل شاب غرّب ، وتضاعفت رسائل القراء إليه ، وطال الجدل فى موضوعه بين طوائف من الشباب فى مجالسهم الخاصة ...

فلما كانت أيام بعد مقالة (س . ا . ع) جاء إلى مجلسنا فى القهوة شاب

من أصدقائنا المتأدين ، هو الأستاذ إسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع بالأدب وشهوة في الجدل ، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشذوذ في الطبع ؛ وكان الرافعي يعرفه عرفانا ، فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... فقال عليه يسأله ضاحكاً ... وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ! وما يحملني على هذا العنت ؟ أتريدني على أن أبيع حريتي من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال وتم للرافعي موضوعه ، فأملى على في اليوم التالي مقالة « استنوق الجمل » في هذه المقالة يجد القراء سبباً آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدم س . ا . ع في المقالة السابقة ؛ فهي الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الرافعي بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعاً ليستجم ، ولم من هنا ومن هناك طائفة من منشور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان كلمة وكليمة . وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة في الفكر ولا في الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصار التي كان الرافعي ينشرها بعنوان « كلمة وكليمة » ؛ فحسبي هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها : في هذه الكلمات التي نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب ؛ وهذه من فضلات المعاني التي اجتمعت له في مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضعاً مما كتب ... وفي هذه الكلمات رسائل إلى (فلانة) من تلك الرسائل التي قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الرافعي . وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحالة السياسية التي كانت في مصر لذلك العهد ، وحكومة صدقي باشا تحتضر ...

فن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كلمة وكليمة .

كان بين الرافعي والإبراهيمي باشا ما قدمت الحديث عنه في بعض الفصول السابقة ، وكان منه أن انقطعت صلة الرافعي بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ

عبد الله عفيفي ... وسارت الخصومة بين الرافعي والإبراشي إلى مدى ، حتى انتهت إلى قطع المعونة الملكية عن (الدكتور) محمد الرافعي مبعوث الخاصة الملكية لدراسة الطب في جامعة ليون !

وضاقت نفس الرافعي بهذا اللون من ألوان الكيد ، ولكنه صبر له واحتمل مشقاته وتكاليفه ؛ وألزمته الضرورة أن يقوم بالإنفاق على ولده حتى يبلغ مأمله ، على قلة إيراده وضيق ذات يده ؛ فاستمر يرسل إليه أول كل شهر ما يقدر عليه وفي نفسه أن يأتي يوم يرفع فيه أمره إلى الملك فيحط هذا العبء عن كاهله ! ووجد الفرصة سانحة لذلك في عيد الجلوس الملكي سنة ١٩٣٤ ، فأنشأ كلمة بليغة في تحيته بعنوان « آية الأدب في آية الملك » وأرسل بها إلى الرسالة لتشر في العدد ٦٦ سنة ١٩٣٤ (١)

كانت حكومة الإبراشي باشا يومئذ في الاحتضار ؛ وقد تنبه الشعب وتهيبات نفسه لحادث منتظر يرد إلى الأمة سلطانها الذي فقدته منذ تولى الإبراشي باشا رئاسة الديوان الملكي ، وكانت الجرائد السياسية تتحدث في كثير من الصراحة عن سلطة الشعب وسلطة القصر وحقوق الأمة . وفي مثل هذه الحال لا يمكن أن تقرأ قصيدة أو مقالة إلا على وجه من وجهين ، مادام هناك رأى بإزاء رأى ، وحديث عن حق الشعب وحديث عن سلطة الملك ...

... ولكن الرافعي لم يعتبر شيئاً من ذلك حين أنشأ « آية الأدب ... » ولم يقدر ما يمكن أن تؤول إليه كلمته عند من يقرؤها من أهل السياسة ؛ إذ لم يكن له من العلم بالسياسة ما يؤهله لأن يفهم ذلك ... !

والرسالة صحيفة أدبية تحرص على رضا قرائها جميعاً على اختلاف رأيهم في السياسة فإن صاحبها ليتوقع ما يمكن أن يوجه إليه من التهمة لو أذن بنشر هذا المقال في صحيفته ؛ فما هو إلا أن سلمه إليه ساعي البريد حتى استقل القطار إلى طنطا ليلقي الرافعي ويحدثه من حديثه ...

(١) كان عيد جلوس الملك فؤاد الأول - رحمه الله - في ٩ أكتوبر، وكان موعد صدور هذا العدد يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٣٤

والتقيا ... وفهم الرافي ما عناه صاحبه ، فأخذ مقاله فأرسل به إلى الأهرام فنشر بها صبيحة عيد الجلوس ، وقرأه من قرأه . ثم كانت آخرة العهد الإبراشي بعد ذلك بشهر واحد فكتب من كتب من خصوم الرافي يعدّد فيما يعدّد من « جناية الإبراشي باشا على الأدب » أنه كان يصطنع الأدباء ليحارب بهم سلطة الأمة ، ويسخرهم للاشادة بحكم الفرد ؛ وكان الرافي عنده من صنائعه ، وآيته هذا المقال وآيات أخرى من تلفيق الخيال !

وأرسل الرافي إلى الرسالة بديلاً من هذا المقال ، مقالاً آخر بعنوان « أرملة حكومة » وكان يعنى به صديقنا الأديب المهندس محمد ا ، وهو شاب من « أدباء القراء » أسقوري المذهب صريح الرأي ؛ سلبخ من عمره ثلاثين سنة ولم يتزوج ، وبينه وبين الأستاذ اسماعيل خ صاحب « استنوق الجمل » صلة من الود ، وشركة في الرأي ، وصحبة في البيت والندى والشارع ...

لقينا مجتمعين في القهوة اجتمعنا كل مساء ، فماج يسلم ثم جلس ، وسأله الرافي : « ... وأنت فلماذا لم تتزوج ؟ »

قال المهندس : « لست والله من رأى صاحبي فيما حدثكم به أمس ، إني لأريد الزواج وأسمى إليه ؛ ولكن من أين لي ... من أين لي المهر ، وهدايا العروس ، وأكلاف الفرح ؟ إن الزواج عندي ليشبه أن يكون معجزة مالية لا قبل لي بها ... ! ولو قد عرفت أن هذه المعجزة تهيأ لي بالبخل على نفسي والقصد في نفقاتي وباحتمال العسر والمشقة على نفسي وعلى من حولي — لما وجدت ما يشجعني على هذا الاحتمال . إني لأعرف من بنات اليوم ما لا يعرف غيري ، أفتريدني على أن أحتمل العنت سنتين أو ثلاثاً حتى يجتمع لي من المال ما يجتمع ، من أجل الوصول إلى زوجة قد يكون لي منها شقاء النفس وعدو العمر ... ؟ »

وقال الرافي ... وقال الشاب ... وطوى الرافي ورقاقه وقد اجتمع له موضوع جديد . وتهيأت له الفكرة تامة ناضجة فأملى على مقاله « أرملة حكومة »

وبعث به إلى الرسالة في البريد المستعجل ليدرك موضعه في عدد الأسبوع بديلاً من (آية الأدب ...)

وقلت للرافى وقد فرغ من إملاء هذا المقال : « أراك لم تنصف صاحبنا المهندس فيما كتبت عنه وما نقلت من رأيه وما رددت به ، إنه ليعتذر إليك بعذر لم أجد جوابه فيما أملت على ، لقد صدق ؛ فمن أين له ... من أين له هو ... ؟ إنه لحرى أن يوجه العتب والملامة إلى آباء الفتيات وإلى هذه التقاليد التي تفرض على الشاب الذي يريد الزواج ما لا طاقة له به إلا أن تكون له معجزة مالية ! » فضحك الرافى وقال : « أترأه كان يتحدث بلسانك ... ؟ لقد أخفيتني عني يوم سألتك ؛ وليس ثمة ما يمنعني أن أصحبك غداً إلى (ع. . .) لأطلب إليه أن يعفك من هذه المعجزة المالية ! »

... ومضت أيام ، ثم دعاني ليلي على « قصة زواج » . وكانت هذه القصة هي جواب ما سألته تأخر إلى ميعاد . وكانت هي أول ما أنشأ الرافى من القصص لقراء الرسالة .

قصص الرافى

أراني وقد بلغت هذا الحد ، مستولاً أن أتحدث عن قصص الرافى ، وكيف كان يؤلفها ، وأول ما عالج منها ، وطريقته فيها : لم يعالج الرافى القصة — فيما أعلم — قبل قصة سميد بن السيّب إلا مرتين : أما أولاً ففي سنة ١٩٠٥ ، وكانت مجلة المقتطف قد سبقت بين الأدباء جائزة لمن ينشئ أحسن قصة مصرية ، فأنشأ الرافى قصته الأولى وكان عنوانها « الدرس الأول في علبة كبريت » ولم يحصل بها على جائزة ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك بثلاثين سنة بعنوان « السطر الأخير من القصة ^(١) » وسأحدث عنها في موضعها . أما القصة الثانية فأنشأها في سنة ١٩٢٥ بعنوان « عاصفة القدر » ونشرتها

المقتطف أيضاً^(١) . ثم كانت قصة سعيد بن المسيب في سنة ١٩٣٤ .
على أن ثمة فرقاً بين هذه القصة والقصتين الأوليين ؛ ذلك أن هاتين القصتين
هو أنشأهما إنشاء ، فلم يعتمد فيهما على حادثة في التاريخ أو حديث في كتاب ؛
أما قصة سعيد بن المسيب فلها أصل معتمد في التاريخ فلم يكن له في إنشائها إلا بيان
الأديب وفن القاص ، وكانت نواةً فهد لها واستنتبتها فنمت وازدهرت .
وفي الأدب القديم نويات كثيرة من مثل هذه النواة لم يتنبه لها الذين يدعون
إلى العناية بأدب القصة في العربية ، ولو قد تنبهوا لها لوجدوا معيناً لا ينضب كان
حرياً بأن يمدهم بالمدد لينشئوا في العربية فناً جديداً من غير أن يقطعوا
الصلة بين ماضينا وحاضرنا في التاريخ الأدبي ؛ وبمثل هذا تحيا الآداب العربية
وتتجدد ، وإلى مثل هذا ينبغي أن تكون دعوة المجددين ، لا إلى الاستعارة
والاستجداء من أدب الغرب والجرى في غبار كتابه وشمرائه .

... أقول : إن الرافي لم يكن يعرف عن فن القصة شيئاً يحمله على معالجتها
ويغريه على العناية بها ؛ وقد قدمتُ القول بأنه كان يسخر ممن يقصر جهده من
الأدباء على معالجة القصة ولا يراه أهلاً لأن يكون من أصحاب الامتياز في الأدب ؛
إذ لم تكن القصة عنده إلا ضرباً من العبث ولوناً من ألوان الأدب الرخيص لا ينبغي
أن تكون هي كلَّ أدب الأديب وفن الكاتب . وقد كان يعيب على لأول عهدى
بالكتابة أنني لا أكاد أكتب في غير القصة ، وأننى أجعل بعض همى في دراسة
الأدب أن أقرأ كل ما أستطيع أن أقرأ عن فن القصة وأسلوبها وطرائقها
ومذاهب الكتاب فيها ، وكان يرى ذلك منى تخلفاً وعجزاً ونزولاً بنفسى
غير منزلتها بين أهل الأدب !

على أنه إلى ذلك كان يجد لذة في قراءة القصة على أنها لون من ألوان الرياضة
العقلية لا باب من الأدب ؛ كما يشاهد رواية في السبأ أو يقرأ حادثة في جريدة .
وأحسب أنه كان يعتقد — على أنه كان لا يعرف التواضع في الأدب — بأنه

لا يحسن أن ينشئ قصة ولا يبنى له . وأحسبه أيضاً حين أنشأ قصة سعيد ابن المسيب لم يقصد إلى أن تكون قصة ، ولكنها هكذا جاءت على غير إرادته فكأنما اكتشف بها نفسه ...

والحقيقة أن الرافعي كان يملك طبيعة فنية خصبة في القصة ، يعرفها من يعرفه في أحاديثه الخاصة بينه وبين أصحابه ، حين كان يتعمد العبث والتسلية ، فيطوى من الحديث وينشر ، ويكتم ويورى ، ويورد الخبر غير مورده ، ويهزل ولا يقول إلا الجذ ؛ ويطوى النادرة إلا آخر الحديث ، ويقول في آخر المقال ما كان يبنى أن يكون في أوله .

وكان له إلى ذلك تعبير رشيق وفكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع ؛ وإن له في هذه الفكاهة لمذاهب عقلية بديعة تحس فيها روحه الشاعرة وحكمته المزنة وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد كثير من مقالاته يكون برهاناً على ذلك ؛ فقلما تخلو إحداها من دعاية طريفة أو نكتة مبتكرة .

... وهذه هي كل أدوات القاص الموفق ؛ فما ينقصه إلا أن يدرس فن القصة ومذاهبها ليكون فيها من السابقين المبرزين . ولكن الرافعي كان يجمل طبيعة نفسه ، وكان له في كتاب القصة ما قدمت من الرأي ، فكان تخلفه من هذين ! وحتى فيما أنشأ من القصص يعد ذلك ، لم يكن له مذهب فني خاص يحتذيه ويسير على نهجه ؛ ولكنه كان يقص كما تلهمه فطرة غير ملق باله إلى مارسم أهل الفن من حدود القصة وقواعدها ؛ فإننا بذلك لنستطيع أن ندرس طبيعته وطريقته القصصية خالصة له وحده ، غير متأثر فيها بمذهب من مذاهب المتقدمين أو المتأخرين من كتاب القصص ؛ على ما قد يكون فيها من نقص وتخلف ، أو ابتكار وتجديد . وطريقة الرافعي في كتابة قصصه غريبة ، وغايته منها غير غاية القصاص ، فالقصة عنده لا تعدو أن تكون مقالة من مقالاته في أسلوب جديد ؛ فهو لا يفكر في الحادثة أول ما يفكر ، ولكن في الحكمة والمغزى والحديث

والمذهب الأدبي ، ثم تأتي الحادثة من بعد ؛ فكان إذا هم أن ينشئ قصة من القصص ، جعل همه الأول أن يفكر في الحكمة التي يريد أن يلقبها على السنة التاريخ — على طريقته في إنشاء المقالات — فإذا اجتمعت له عناصر الموضوع وانتهى في تحديد الفكرة إلى ما يريد ، كان بذلك قد انتهى إلى موضوعه فليس له إلا أن يفكر في أسلوب الأداء ، وسواء عليه بعد ذلك أن يؤدي موضوعه على طريقة المقالة أو على طريقة القصة ، فكلاهما ينتهيان به إلى هدف واحد ؛ فإذا اختار أن تكون قصة تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق ، حتى يعثر باسم من أعلام التاريخ ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ؛ ثم يصطنع من ذلك قصة صغيرة يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذي أعده من قبل ؛ وإنه ليلهم أحياناً ويوفق في ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتي القصة وكأنها بنت التاريخ وما للتاريخ فيها إلا نادرة يرويها في سطور ، أو إلا أسماء الرجال

على أن البديع في ذلك هو قدرة الرافعي — رحمه الله — على أن يعيش بخياله في كل عصر من عصور التاريخ ، فيحس إحساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لا يشك كثير ممن يقرأ قصة من قصص الرافعي في أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء ...

وأحسب أن الرافعي لم يتخذ هذه الطريقة في تأليف القصص عن عمد واختيار ؛ فلم يكن ثمة ما يدفعه إلى معالجة القصة واختيار طريقة فيها — ورأيه في القصة رأيه — ولكنه مذهب اتفق له اتفاقاً بلا قصد ولا معاناة ؛ وإنما تأتي له ذلك من طريقته التي أشرتُ إليها في الحديث عنه عند ما يهم بالكتابة ؛ فقد أسلفت القول أنه كان يحرص على أن يعيش وقتاً ما قبل الكتابة في جو عربي ، فيتناول كتاباً من كتب الأدب القديم يقرأ منه فصلاً ما قبل أن يشرع في إملاء مقاله ؛ فمن هنا كان أول الطريق إلى مذهبه في القصة . ولكل شيء سبب . وأحسبه لما هم أن يكتب عن « المعجزة المالية » في تقاليد الزواج وعن فلسفة المهر ، وقد اجتمعت له الفكرة .

في ذلك ، تناول — كمادته — كتاباً من كتب العربية يقرأ فيه ما تيسر ، فاتفق له في مطالعته أن يقرأ قصة سعيد بن المسيب والوليد بن عبد الملك وأبي وداعة ؛ فرآها أشبه بموضوعه وفيها تمامه ، فبدا له أن يؤدي موضوعه هذا الأداء فكانت قصة . وأذكر أنه لما دعاني ليملي عليّ هذه القصة قال لي في لهجة الظافر : « ... لقد وقعت على نادرة مدهشة من التاريخ تتحدث عن فلسفة المهر حديثاً لا أعرف أبلغ منه في موضوعه ... » فمن ذلك أعتقد أن أول هذا المذهب في القصة كان اتفاقاً غير مقصود ، صادف طبيعة خصبة ونفساً شاعرة فكان فناً جديداً .

وأكثر قصص الرافعي من بعدُ على هذا المذهب . على أن لكل قصة من هذه القصص — أو لاكثرها — أصلاً يستند إليه من رواية في التاريخ أو خبر مهمل في زاوية لا يتنبه له إلا من كان له مثل طبيعة الرافعي الفنية وإحساسه ويقظته ؛ على أن أهم ما أعانه على ذلك هو عندي صلته الروحية بهذا الماضي وشعوره بالحياة فيه كأنه من أهله ومن ناسه ؛ فإن له بجانب كل حادثة وكل خبر من أخبار ذلك الماضي قلباً ينبض كأن له فيه ذكرى حية من ذكرياته تصل بين ماضيه وحاضره ، فما يقرؤه تاريخاً كان وانطوت أيامه ولكنه يقرأ صفحة من ماضيه ما يزال يحس فيها إحساس الحى بين أهله ، فما أهون عليه بعدُ أن يترجمها من لغة التاريخ إلى لغة الأحياء !

وقد كنت على أن أرد كل قصة من قصص الرافعي إلى أصلها من التاريخ وأنسبها إلى راويها الأول ، ليكون النموذج واضحاً لمن يريد أن يحتذى الرافعي ليتم ما بدأ على مذهبه في تجديد الأدب العربي . ولكنني وجدت ذلك أشبه بأن يكون فصلاً من الأدب ، ليس موضعه في هذا الكتاب .

عود على بدء

كان فيما تحدث به صديقنا المهندس الأديب محمد ا. إلى الرافعي من أسباب عزوبته، أن الزواج عنده حظ محبوء ، فإنه ليخشى أن يحمل نفسه على ما لا تحتمل من العنت والمشقة في سبيل إعداد ما يلزم للزواج ، ثم تكون آخرة ذلك أن يجلوا عليه فتاة دميمة لا يجد في نفسه طاقة على معاشتها ما بقي من حياته ، أو فتاة فاسدة التربية لا يدخل بها على زوجة ولكن على معركة ...

وقد ظل هذا القول عالقاً بذهن الرافعي يلتمس الوسيلة إلى تفنيده والرد عليه ، حتى وقع على قصة أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) ، فأنشأ مقالة « قبح جميل » وهي القصة الثانية مما أنشأ الرافعي لقراء الرسالة ؛ وهي الحلقة الخامسة من سلسلة مقالاته في الزواج ، وفيها توجيه معتبر للحديث الشريف : « سوداء ولود خير من حسناء لا تلد ! » يسلك هذه المقالة في باب « الأدب الديني » الذي أشرت إليه في بعض ما سبق من الحديث .

ثم كانت الحلقة السادسة هي قصة « رؤيا في السماء » ، وتتصل بما سبق من المقالات بأسباب ، على أنها تتحدث عن الزواج بمعناه الأسمى ، وتدعو إليه الدعوة الإنسانية التي تعتبر الزواج باباً من الجهاد لسعادة البشرية كلها ...

في هذه المقالة ؛ لا أعرف سبباً خاصاً من مثل ما قدمت دعاء إلى إنشائها ، ولكنها جملة الرأي وخلاصة الفكر وأثر اشتغال الواعية الباطنة قرابة شهرين بموضوع الزواج ؛ فهي من الموضوع كالهامش والتعليق ، أو الحكم بعد المداولة ، أو هي الصفوة الصريحة بعد ما يذهب الزبد وتنطق الرغبة ...

وقد ترجم هذه القصة إلى الفرنسية الأديب الباحث الأستاذ فليكس فارس ؛ وكانت هي أول الصلة بينه وبين المرحوم الرافعي ثم اتصل بينهما الود .

لما أنشأ الرافعي « قصة زواج » تحدث بها الأدباء في مجالسهم وتضاعفت

رسائلهم إليه معجبين مستزيدين ؛ وتضاعف إعجابه هو أيضاً بنفسه . . . فاستزاد واستعاد ، والتزم الكتابة على أسلوب القصة ، فكان على هذا النهج أكثر رسائله من بعد .

وجلس إليه ذات مساء نتحدث حديثنا ، فقال وهو يدفع إلى طائفة من رسائل القراء : « اقرأ يا شيخ سعيد . . . أرأيت مثل هذا ؟ أيمحق لأحد أن يزعم لنفسه القدرة على خير مما أكتب في موضوعه ؟ أيملك كاتب أن يردّ على رأياً من الرأى ؟ » ومضى في طرائق من مثل هذا القول عن نفسه وعن طائفة من خصومه ؛ فعرفت أنه في لحظة من تلك اللحظات التي تنبه فيها النفس البشرية إلى طبيعتها ، فتؤمن بنفسها من دون كل شيء مما خلق الله ، إيماناً هو بعض الضعف الإنساني في طبيعتنا البشرية وهو بعض أسباب القوة في النابغين من أهل الآداب والفنون ؛ ذلك الإيمان الذي نسميه أحياناً صلفاً وعنجهية وكبرياء ؛ ونسميه في النابهين والعظماء ثقة بالنفس وشعوراً بالقوة !

وكان يلذني في أحيان كثيرة أن أشهد الرافى في مثل هذه الساعة من ساعات الزهو والإعجاب بالنفس ، وأجد في ذلك متاعاً لنفسي وغذاء لروحي ؛ لأن الرافى بما كان فيه من طبيعة الرضا والاستسلام للواقع كان رفيقاً متواضعاً ؛ فلا تشهد في مثل هذه الحال إلا نادرة بعد نادرة ؛ فإذا شهدته كذلك مرة فقد شهدت لوناً طريفاً من ألوانه ، يوحى إلى النفس بفيض من المعاني ، وكأنما هو يمدى سامعه من حالته ، فيحس في نفسه قوة فوق قوته ، وكأن شخصاً جديداً حلّ فيه ..

. . . وسرني أن أجد الرافى كذلك في تلك الليلة ، فأصغيت إليه ومضى في حديثه ؛ فلما انفض المجلس ومضيت إلى داري ، وسوس لي الشيطان أن أعابته بشئ . . . فكتبتُ إليه رسالة بإمضاء (آنسة س) أرد عليه رأيه في قصة سعيد بن المسيب ، وأعيب ما صنع الرجل بابنته ، وعمدت في كتابة هذه الرسالة إلى تقليد أسلوب من أسلوب الدكتور طه ، يعرفه قراء الرسالة ويعرفه الرافى . . . وبلغته الرسالة فقرأها ، فنهته إلى ما كان فيه من أمسه ؛ ووقع في نفسه .

أن مرسلها إليه هو تلميذ أو تلميذة من تلاميذ طه موحى إليه بما كتب، فتحمس للرد، وأنشأ « ذيل القصة وفلسفة المهر » وجعل أول مقاله رسالة (الآنسة س) وراح يسخر منها ومن صاحب رأيها سخرية لازعة ؛ ثم عاد إلى موضوع فلسفة المهر ...

وقرأ صاحب الرسالة المقالة فرأى فيها تعريضاً بصاحبه لم يرض عنه ، فكتب إلى الرافى يطلب إليه أن يوافق على حذف مقدمة المقالة ، حرصاً على ما بين الرسالة والدكتور طه من صلات الود... وكان له ما طلب، فنشرت المقالة في موعدها خالية من هذا الجزء ، ولكنها لم تخل من إشارات مبهمة إلى أشياء غير واضحة الدلالة ؛ وكذلك نشرت من بعد في وحي القلم ...

ثم كانت قصة « بنت الباشا » وهى السابعة من مقالاته فى الزواج ، وقد ألهمه موضوعها صديقه (الزبال الفيلسوف) الذى تحدث عنه فى هامش هذه المقالة . وهذه المقالة فيما ترى إليه تعتبر متممة لموضوع « قصة زواج » فهى دعوة اجتماعية لآباء الفتيات إلى الانطلاق من أسر التقاليد فى شئون الزواج ، وفيها إلى ذلك شئ من الحديث عن « فلسفة الرضا » التى أسلفت القول عنها فى « حديث قطين » أما هذا الزبال الذى نوه به الرافى فى أكثر من مقالة ، فهو من عمال قسم النظافة فى « بلدية طنطا » ، وكان عمله قريباً من دار الرافى فى الشارعين اللذين يكتنفانها ، وكان إذا فرغ من عمله فى الكنس والتنظيف اتخذ له مستراحاً على حيد الشارع تجاه مكتب الوجيه محمد سعيد الرافى ، فيقضى هناك أكثر أوقات فراغه ، نائماً أو محتبياً ينظر الرائحين والغادين من أهل الثراء والنعمة ، أو شادياً يصدق بأغانيه ؛ فإذا جاع بسط منديله على الأرض فياً كل مما فيه ، ثم يشعل دخينة ويعود إلى حبوته يتأمل ...

كان هذا الزبال صديق الرافى ، بينهما من علائق الود وصفاء المحبة ما بين الصديقين ؛ وكان الرافى يسميه « أرسطو الجديد » . وأول هذه الصلة التى بينهما

أن الرافى كان يلذه أحياناً أن يجلس على كرسى فى الشارع أمام مكتب أخيه ، حيث آخذ الزبال « محله المختار » فكان يواقفه فى مجلسه ذلك على ما قدمت من وصفه ، فيرفع يده إلى رأسه بالتحية وهو يتسم ، ثم يجلس ؛ وكان يحادثه أحياناً فى بعض شئونه يلتبس بعض أنواع المعرفة ... ويكرمه ويبره . وأنس إليه الزبال ، فكان يسأل عنه إذا غاب ، وينهض لتحيته إذا حضر ؛ وصار بعض عادات الرافى من بعد ، أن يسأل عن الزبال حين يغيب ، وأن يشتري له كلما لقيه دخائن بنصف قرش ، مبالغة فى إكرامه ...

وكان الرجل أمياً ، ولكن الرافى كان يفهم عنه من حركات شفثيه ، وأحياناً يستدعى بينهما من يترجم له حديث الزبال مكتوباً فى ورقة ، وقد كنت الترجمان بينهما مرة . وكان الرافى يحرص على هذه الورقات بعد نهاية الحديث ، كما يحرص الباحث على مطالعة أفكار من غير عالمه !

ومما كان يدور بين الرافى وصديقه هذا من الحديث ، عرف الرافى طائفة من ألفاظ اللغة العامية كان يجهلها ، وطائفة من الأمثال ؛ ونبهه ذلك من بعد إلى العناية بجمع أمثال العامة ، فاجتمع له منها بضعة مئات بمصادرها ومواردها ، وأحسبها ما تزال محفوظة بين أوراقه . كما أفاد الرافى من صداقة هذا « الفيلسوف الطبيعى » معانى وأفكاراً جديدة فى فلسفة الرضا لم تلهمه بها طبيعته .

ولهذا الزبال صنع الرافى أكثر من أغنية ، أعرف منها الأغنية التى نشرها لقراء الرسالة فى العدد ٧١ سنة ١٩٣٤ وأغنية أخرى دفعها إلى الآنسة ماري قدسي معلمة الموسيقى بوزارة المعارف لتضع لها لحنًا يناسبها .

وقد كان فى نفس الرافى أن يكتب مقالة عن هذا الزبال يتحدث فيها عن فلسفته الطبيعية العملية ، وكان محتفلاً بهذه المقالة احتفالاً كبيراً ، حتى إنه هم بموضوعها أكثر من مرة ثم عداها إلى غيرها حتى تنضج ؛ وقد هيا لها ورقة خاصة كان يجمع فيها كل ما يتهيأ له من الخواطر فى موضوعها ليستعين به عند كتابتها ، ولكن الموت أعجله عن تمامها ، وأجسب أن هذه الورقة ما تزال بين ما خلف من الأوراق .

لم تكن قصة « بنت الباشا » هي آخر حديثه عن الزواج ، وإن كانت آخر ما أنشأ في هذا الموضوع بخصوصه ؛ ثم بقي عنده طائفة من المعاني والخواطر في موضوع الزواج والمرأة ، جاءت مبعثرة في طائفة من المقالات من بعد ؛ ومنها مقالة (احذرى) وهي قصيدة من النثر الشعري مترجمة عن الملك ، تقع منزلتها بإزاء القصيدة المترجمة عن الشيطان في مقالة (لحوم البحر) .

وكان الرافعى في هذه الفترة قد اصطنع مودة بينه وبين طائفة من الشبان اللاهين ، كانت تجمعهم قهوة (لنوس) في طنطا للعبث والهوى والمجانة ؛ فتألفهم بالنادرة والفكاهة ليجمعهم إليه فيستمع إلى أحاديثهم في شئون المرأة والزواج ؛ وقد قدّمت القول في بعض ما سبق من هذه الفصول بأن ذهن الرافعى كان سريع الالتفات إلى معاني المرأة ، وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ، حتى لتراه وهو يستمع إلى محدّته إذ يتحدث عن الحب والمرأة كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا حديثاً ؛ ثم يزيّن له خياله ما يزين فيضيف من وهمه إلى ما سمع ما لم يسمع ؛ فتراه كما ترى الفتى المراهق : يجد حديث الفزل والحب حريقاً في دمه وثورة في أعصابه لا حديثاً في أذنيه ... فيستزيد مما يسمع وهو صاغر ملذوذ ؛ فيحمل محدّته بذلك على الاطناب والاسترسال حتى ينفض جملة ما في نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال ... !

وعلى شدة إحساس الرافعى بمعاني (الجنس) إلى هذا الحد ، فإنه بإيمانه وخلقه وتدينه واعتصامه بالوحدة ، كان قليل الخبرة ضئيل المعارف في هذا الباب ؛ فكان له علم جديد في كل ما يسمع من هؤلاء الفتيان من قصص ما بين الشبان والشابات من ناشئة هذا الجيل ؛ وكان هذا العلم الجديد يسرع به إلى سوء الظن بكل فتى وكل فتاة ، وكان من هذا الظن مذهبه الاجتماعي الذي يعرفه القراء .

من أحاديث هؤلاء الفتيان ، كان إليه وحى المعاني في قصيدة « احذرى » ؛ كما كانت توحى إليه حوادث بعض الصحف وأحاديث بعض المجلات بكثير من المعاني وكثير من الموضوعات ؛ إذ كان يحرص على أن يقرأ كل ما تنشره الصحف

والمجلات من أحاديث الهوى والشباب ومصارع الأخلاق .

وكان الرافى مختلف في طنطا إلى بيوت طائفة من مهاجرة لبنان، كان بينه وبينهم صداقة ومودة ؛ فكان يزورهم بين أهليهم ، فيكرمونه ويتسعون له ويحفون به ؛ والرافى محدث لبق ظريف المسامرة ؛ فكانت مجالسه هناك تطول ساعات يتحدث إليهم ويتحدثون إليه . وفي بيوت المتمصرين من أهل لبنان عادات غير ما نعرف في بيوتنا ، فكان الرافى يجد هناك جواً يوحى إليه ويمده بعلم جديد . وأنا لم أصحب الرافى في طنطا إلى (زيارة مصرية) إلا فيما ندر ، على أنى كثيراً ما كنت أصحبه في تلك الزيارات !

وأعترف بأن الرافى لم يكن يقصد إلى زيارة أصدقائه هؤلاء لغرض مما يتزاور من أجله الأصدقاء ، ولكنها كانت زيارات يقصد بها إلى معنى مما يتصل بفنه وأدبه ؛ وأحسب أن كثيراً ممن كان يزورهم ويوزورهم كن يعرفن له ذلك فبهين له أسبابه . وكثير من نساء لبنان أحفل بالأدب من رجال في مصر .

وقد صحبتته مرة إلى زيارة أسرة الأنسة ق ، وهى فتاة ذكية من أهل الفن والأدب ؛ وقد ألح على يومئذ إلحاحاً شديداً أن أصحبه ، ولم أكن أعلم ما يقصد إليه بهذه الزيارة إلا أن تكون تسلية بريئة ومتاعاً من متاع أهل الفن

وكنيت في ذلك اليوم صانعاً أغنية عامية في معنى من معانى الشباب تعبّر عن حال من حالى في تلك الفترة ، ودفعتها إلى الرافى لينظر فيها ؛ فلما قرأها طواها وجعلها في جيبه ...

... وصحبت الرافى إلى حيث يريد ، فاستقبلتنا الفتاة وأمها وشاب من قرابتها ، ثم لم يكده يستقر بنا المجلس ، وأهل الدار حافون بنا يبالغون في إكرامنا ، حتى أخرج الرافى الورقة من جيبه فدفعها إلى الفتاة ...

وقرأت الفتاة الأغنية ، ثم ردتها إلى الرافى وهى تقول : « جميل . شعر عاشق ! » قال الرافى وهو يشير إلى مبتسماً : « إنها أغنيته ! »

قالت : « إيه ... ! أعاشق هو ! »

قال الرافعى : « نعم ... ! ومن أجلك صنع هذه الأغنية ! »

ومضت فترة صمت ، وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة ، وتولتني الدهشة مما سمعت فما استطعت الكلام ، ونظر الرافعى إلى نظرة طويلة لم أفهمها ، وكان بى من الحياء أضعاف ما بالفتاة ... وكانت دعا به غير مألوفة ولا منتظرة ، أوقعتنى فى كثير من الحيرة والارتباك ...

وقطعت الأم هذا الصمت الثقيل قائلة : « أغنية رقيقة ! »

وردد الشاب صدى صوتها يقول : « ... رقيقة ! »

وثبت فى مكانى لا أتحرك ، ولا أرى أمامى غير تلك الابتسامة الغامضة على شفتى الرافعى ...

ثم نهضت الفتاة إلى الغرفة الثانية وعادت بطبق الحلوى فقدمته إلى ؛ ثم إلى الرافعى ؛ واتخذت مجلسها إلى جانبى ... وعاد الحديث ألواناً وأفانين بين الجماعة وأنا صامت فى مجلسى لا أكاد أفهم ما يدور حولى من الحديث !

وجعلت أسائل نفسى وأكاد أنشق غيظاً : « ترى ماذا حمل الرافعى على هذا القول ... ؟ »

فلما انفض المجلس وخرجنا إلى الطريق نظرت إلى الرافعى مغضباً أسأله جلاء السر ، فضحك ملء فيه وهو يقول : « قصة طريفة ... لقد عقدنا العقدة فانظر فى طريقة للحل ... سيكون فصلاً أدبياً ممتعاً يا شيخ سعيد ، تكون أنت مؤلفه . وعلى أن أرويه ؛ لقد سئمتنا الخيال فالتمسناك وسيلة إلى الحقيقة ... »

وغازنى حديث الرافعى أكثر مما غاظنى الذى كان منه ، فتمردت عليه ، ولكن الرافعى عاد يضحك ويقول : « أتراك — إن أبيت — تستطيع أن تمنع نفسك الفكر فيها وأن تمنعها ؟ لقد بدأت القصة فما بدّ من أن تكون لها خاتمة ! »

وضقت بهذه الدعاية وثارت نفسى فأخشنت القول ؛ فزاد به الضحك . وهو يقول : « وهذه الثورة أيضاً هى حادثة من فصول هذه الرواية ... ! »

وأعداني مرح الرافعي وانبساطه فضحكت ، ثم لم أجد للجدال فائدة فسكتُ
على غيظ ضاحك . ولقيتُ الفتاة بعدها مرتين فتناست ما كان ولم أسأل نفسي
عن شيء من خبرها ... ومضى زمان ، ثم جاءني الرافعي يوماً يقول : « إن بينك
وبين صديقنا الأديب ج لشيئاً ! » قلت : « ماذا ؟ »
قال : « أحسبه يفار منك على خطيبته الآنسة ق ؛ فإنه ليعلم أن بينكما
عاطفة ... ! »

وقال لي (ع) الذي صارت ابنته في داري من بعد : « أترك كنت مع الرافعي
أمس في زيارة فلانة ؟ » فتوجست من سؤاله شيئاً ...
وكادت تكون قصة كما أراد الرافعي ولكنني حسمت أسبابها فراراً بنفسى !

... من مثل هذه الحادثة كان يلتبس الرافعي موضوعاته ويبدع معانيه في المرأة
والحب والزواج ومشاكل الأسرة ؛ ومن هذه المجالس التي كان يصطنعها أو يسعى
إليها ويهيئ أسبابها ، كانت تنجلي له الفكرة ويومض الخاطر وتتشقق المعاني ؛
ومن هذا الجو زخرت نفسه بالعواطف النابضة التي ألهمته من بعد أن ينشئ
مل أنشأ من القصص لقراء الرسالة ، ومنها كانت قصص : الأجنبية ، وسمو الحب (١)
والله أكبر واليماستان ، وغيرها . وما أعنى أن ذلك كان يملئ عليه القصة والموضوع ،
إنما كان يمدد بالمعاني والخواطر حتى يملأ نفسه ويوقف حسه ؛ فما تزال هذه الخواطر
والأفكار مضمرة في الواعية تزيد وتتوالد وينضم شيء منها إلى شيء حتى يأتي وقتها ؛
فإذا هم بموضوع مما يتصل بهذه الخواطر المضمرة انثالت عليه المعاني اثثالاً
حتى يتم الموضوع تمامه على ما يريد .

ولما قص الرافعي قصة « الأجنبية » وحكى حكايتها على لسان ولده الدكتور
محمد ، أحس بالتعب والملل ، وراجع ما كان من عمله في الأشهر الستة الماضية
منذ بدأ يعمل في رساله ، وما عاد عليه ؛ فضاقت نفسه وبرمت به ، وأحس في نفسه

شعوراً جديداً ليس له به عهد ، وقال لنفسه وقالت له ، وثقل جسمه في الفراش بما يحمل في صدره من هم وما يضني جسده من علة ؛ وخفت روحه إلى سماواتها ، وتنازعت قوتان ... وهم أن يكتب إلى الأستاذ صاحب الرسالة ليعفيه من الاستمرار في العمل ... وطال الحديث بينه وبين نفسه فأرقه ليلة ...

وتركته وروحت إلى داري وهو شاك متبرم ينكر موضعه من الحياة ومكانه بين أهل الأدب . فلما كان عصر اليوم التالي دعاني ليملي عليّ « قلت لنفسى ... » وقالت لي .. «

من أراد أن يعرف الرافعي العرفان الحق ، فليقرأ هذا الحديث يعرف نفسه الصريحة على فطرتها ؛ ثم يعرف مذهبه في الأدب وهدفه في الحياة .

إن غاية ما ينشده الباحث عند ما يهم بالبحث في حياة إنسان له أثر في تاريخ الحياة أو تاريخ الأدب ، أن يعرف مضمير نفسه من ثنايا أعماله أو من حديث معاصريه ؛ وإنه مع ذلك ليخطئ أو يصيب سبيل المعرفة ، ولكن ها هنا إنساناً يتحدث عن نفسه وتحدث نفسه إليه ، حديثاً كله صدق لا اختراع فيه ولا تزوير ولا سبيل فيه إلى الخطأ .

وأشهد أنني رأيته قبل أن يملي عليّ الحديث وأن في وجهه لمعانيه قبل أن يكون كلاماً ؛ فما رأيته ورأيت حديثه من بعد إلا كما تصور معركة في حكاية وصف : هذه هي هذه ، وكانت حركات صامتة فصارت عبارة ناطقة .

وأكثر معانيه في هذا الحديث قديم في نفسه ؛ وقد نظم شيئاً منها قبل ذلك بسنتين أو ثلاث في قصيدة نشرها في مجلة المقتطف .

... وكما تثوب إلى المحزون نفسه إذا صرح بشكائه إلى صاحب سره ، هدأت نفس الرافعي بعد إملاء هذا المقال وثاب إلى الطمأنينة والرضا ، وكأنما نقض همومه وأحزانه في هذه الكلمات وكانت تثقل رأسه ؛ أو كأنما كان يستمع إلى مداولة الرأي في محكمة الضمير بين نفسه وهواه ، فما هو إلا أن استوعب ما قال وقالت حتى اطمأنت نفسه إلى الحكم الأخير ، وانتصرت الروح السامية على ما كان ينازعها من أهواء البشرية ...

ثم كان هلال رمضان فأنشأ مقالة « شهر للشورة » وهي السابعة مما أنشأ من المقالات الدينية لقراء الرسالة .

كانت خير أوقات الكتابة عند الرافعي في المساء، حين يعتدل الجو، وتسكن الحركة، وتخف المدة؛ إذ كان عمله في المحكمة يملأ بياض نهاره . فلما كان رمضان سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ الميلادية) سألتني : « كيف نصنع يا شيخ سعيد في هذا الشهر وأى أوقاته نجعلها للكتابة ؟ » قلت : « فانظر فيما تراه خيراً لك، ولست أرى ما يمنع أن تستمر على عادتك فتجعل مجلسك للكتابة بعد العشاء » قال : « لا سبيل إلى ذلك والمدة مثقلة بعد خلاء، ولكني سأحاول أن أكتب في العصر، فإنه حينها امتلأت المدة ثقل الرأس، فلعل فراغها في النهار أن يشحذ الذهن ويصقل الفكر » .

وحاول أن يكون ذلك فلم يقدر عليه، ومضى يوم ويوم ويوم، وانتهى الأسبوع الأول من رمضان ولم يكتب شيئاً للرسالة، واستحيا أن يعتذر، فلم طائفة من « فئات المكتب » وجعلها الجزء الثاني من « كلمة وكليمة » وبعث بها .

في هذه الكلمات المنشورة بالعدد ٧٦ كلمات عن السياسة تفسرها الحالة السياسية في مصر في أوائل عهد وزارة المرحوم نسيم باشا، وفيها حديث عن الزكاة والصوم، وفيها كلمات عن الزواج والمرأة، وفيها رسائل إلى « فلانة » !

ثم كانت مقالة الأسبوع التالي هي قصة « سمو الحب » .

أشياء ثلاثة أملت عليه موضوع هذه القصة : رمضان، وكتاب الأغاني لأبي الفرج، وما يسمع من أحاديث الشبان عن الحب .

أما رمضان فسمي بروحه وأمه بما في القصة من المعاني الدينية التي حكاها على لسان مفتي مكة وإمامها « عطاء بن أبي رباح » والرجل الزاهد « عبد الرحمن القس بن عبد الله بن أبي عمار » .

وأما كتاب الأغاني فأعطاء صلب القصة وأساس البناء في سطور يرويها من خبر « سلامة المغنية » جارية يزيد بن عبد الملك، وقد وقع الرافعي على هذا

الخبر اتفاقاً في إحدى مطالعته في كتاب الأغاني .

وأما أحاديث الشبان فحفزته إلى إنشاء هذا الفصل ليضربه مثلاً لسمو الحب يصحح رأى الناس فيه ويكون منه لشباب الجيل درس وموعظة .

في هذا الفصل يجد كل سائل جوابه إن كان يعنيه أن يعرف كيف يجتمع الدين والمروءة والحب في قلب رجل كالرافى يعرفه الناس فيما يكتب شيخاً من شيوخ الدين فيه تخرج وخشية ، ويعرفه من يعرفه من أصحاب مجنون ليليات وقيس ليليات !

... ولكي ينتفع الرافى بوقته في رمضان كان يتخفف من طعام الفطور ، ثم يجلس مجلسه بعد العشاء للإملاء ؛ فإذا فرغ من الكتابة أو الإملاء تناول السحور ، فيعوض فيه بعض ما فاته من فطوره ثم ينام !

على أنه لم يجد راحته في هذا النظام أيضاً ؛ فلما كان الأسبوع الثالث لم يجد في نفسه خفة إلى العمل ، فعاد إلى أوراقه القديمة يبحث بينها عن شيء يصلح للنشر ليسترخ أسبوعاً من العمل ، فوقع على ورقات من مجلة المقتطف في سنة ١٩٠٥ كان قد نشر بها قصته الأولى : « الدرس الأول في علبة الكبريت » ، فعاد إلى قراءتها ، فلما فرغ من القراءة التفت إلى قائلاً : « هذه قصة ينقصها السطر الأخير » قلت : « وماذا يكون هذا السطر ؟ » . قال : « اسمع : هذا غلام سرق علبة كبريت منذ ثلاثين سنة فحُكم بها وحكم عليه ... » . قلت : « نعم ! » قال : « فما تظن هذا الغلام الآن بعد هذه الثلاثين ؟ » قلت : « أراه الآن رجلاً يفلح الأرض أو يعمل بالفأس في حجارة أبي زعبل ! »

قال : « هذه الأخيرة أمثل به ؛ لقد تلقى الدرس الأول في علبة كبريت فقاده إلى الحبس ، فهل تراه بعد هذه الثلاثين إلا قد أتم دروسه ووقف على عتبة المشقة ... ؟ اكتب ... اكتب » .

وأمل على مقالة « السطر الأخير من القصة » .

لم يغير الرافى هذه المقالة عن أصلها فيما عدا الخاتمة وعبارات قليلة ؛ وزاد عليها

شيئاً من المحاورة بين الغلام وقاضيه ؛ وما كان حرصه على بقائها كذلك إعجاباً بها ، ولكن كأنما ردت هذه المقالة إلى شيء من ماضيه تروّح فيه من روح الصَّبِي والشباب ؛ فمن ذلك كان إبقاؤه عليها ليقى فيها روح الصَّبِي والشباب !
وفي الأسبوع التالي — وهو الأسبوع الأخير من رمضان — أُملي على قصة « الله أكبر » .

وهي بسبيل مما سمع من أحاديث الشبان عن الحب ، ورقية ثانية من رُقي الحب الداعر : كانت الرقية الأولى هي كلمة « برهان ربه » في قصة سموّ الحب ، وكانت الرقية هنا هي كلمة « الله أكبر »

وأول الأمر في هذه المقالة أننى كنت جالساً إلى الرافى في القهوة نتحدث في شأن ما ، وساقنا الحديث مساقه إلى بعض شئون العيد ، ولم يكن بيننا وبين عيد الفطر إلا أيام ، وقال الرافى : « ... وأنا لو ارتدّ إلىّ السمع لن يطربنى شيء من النشيد ما كان يطربنى في صدر أيامى نشيد الناس في المساجد صبيحة يوم العيد : الله أكبر الله أكبر ! يعجب بها المسجد ويضج الناس ... ليت شعرى هل يسمع الناس هذا التكبير إلا كما يسمعون الكلام ؟ الله أكبر ! أما إنه لو عقل معناها كل من قالها أو سمع بها لاستقامت الحياة على وجهها ولم يضل أحد ! »

ومضى يتحدث عن روح المسجد وفلسفة التكبير عند الأذان وفي كل صلاة ، فما فرغ من الحديث حتى طرقتنا زائر من رواد القهوة فحيا وجلس ... وتنقل الحديث بيننا من فن إلى فن إلى فنون ...

وتهيأ موضوع القصة في فكر الرافى ، فلما دعانى ليليلها علىّ لم يجد في نفسه إقبالاً على العمل ، فوقف في الإملاء عند منتصف مقاله ونسأ البقية إلى غد ، ثم كان تمامها .

وفي صبيحة يوم العيد ذهب على عادته إلى المقبرة لزيارة أبويه وقد كان في الرافى حرص شديد على ذكرى أبويه ؛ فهما معه في كل حديث يتحدث به عن نفسه ، وزيارة قبرهما فرض عليه كتماهيات له الفرصة ؛ وما إشاره الإقامة في طنطا على ضيقها

به وجهها مقداره إلا ليكون قريباً من قبر أبيه وأمه . وقد نقلته وزارة الحقانية
حرة نقلة قريبة ، فتمرد على أمر الوزارة وأبى الانتقال وانقطع عن العمل في وظيفته
قراية شهرين حتى ألفت الوزارة هذا النقل ، وكانت كل حجته عند وزارة الحقانية
في إثارة طنطا : أن فيها قبر أبيه وأمه !... وقد مات ودفن إلى جانب أبيه وأمه ،
فلعله الآن سعيد بقربهما في جوار الله ولعلمهما به ..

... ولما عاد من زيارة المقبرة أُملي علىّ مقالة « وحي القبور ! »

ثم عاد إلى موضوع الزواج يتناوله من بعض أطرافه ، فأنشأ قصة « بنته
الصغيرة » وهي الثالثة مما نحل أئمة الصدر الأول من القصص ؛ تحدث في « قصة
زواج » عن سعيد بن المسيب ، وتحدث في « سمو الحب » عن عطاء بن أبي رباح ،
وتحدث هنا عن مالك بن دينار والحسن البصري

في هذه القصة يتناول الرافعي موضوع الزواج على النحو الذي تناوله به
في قصة « رؤيا في السماء » على أنه باب إلى السمو بالإنسانية ، وفيها إلى ما فيها
من الدعوة إلى الزواج وبر البنات — شئ من الأدب الديني يضمها إلى سابقاتها
ثم نشر بعد هذه القصة الجزء الثالث من « كلمة وكليمة » — العدد ٨٤
سنة ١٩٣٥ — وفيها كلمات عن السياسة ، وحديث عن المرأة ، ونظرات في أخلاق
بعض الناس أوحى إليه بمعانيها قضية كانت له في المحكمة شغله أمرها وقتاً ما .
وقصة ذلك أن الرافعي كان اشترى قطعة أرض للبناء في شمال المدينة ونقد البائع
ثمها وجعل لها حدوداً مرسومة ؛ ثم أعجزه أن يبينها فظلت خلاء . وكانت
هي كل ما حصل الرافعي من الإشتغال بالأدب أكثر من ثلث قرن ؛ ثم
طمع البائع أخيراً فيما باع ؛ فتحيف القطعة من أطرافها ، واصطنع بينه وبين
الرافعي مشكلة قانونية تعجزه عن بلوغ حقه إلا بعد مطاولة تدفع إلى اليأس ،
وشكاه الرافعي وتأهب لمنازلته ، فاستعان عليه خصمه بواحد من ذوى صهره يعمل
مفتشاً في وزارة الحقانية ، فانتدب للتفتيش عن أعمال الرافعي الرسمية في محكمة

طنطا مهدداً متوعداً ، لعله يحمله بذلك على النزول عن بعض حقه !
طالت القضية بين الرافى وخصمه ، وتعددت جلسات المحكمة ، وطالت كذلك
دورة التفتيش وكثر تحدى المفتش للرافى حتى لزمه ثلاثة أشهر يفتش عن أعماله ،
فحص فيها عن بضع مئات من القضايا التى قدر الرافى رسومها ، لعله يعثر له فيها
على غلطة تحمله على الخضوع له ؛ وغلطة فى تقدير الرسوم لقضية من القضايا معناها
غرامة مالية .. ومن أين للرافى ؟

وكنت متعوداً أن أغدو على الرافى فى المحكمة فى أوقات الفراغ ؛ فلما علمت
أن مفتشاً عنده أقصرت ؛ فلما علم منى سبب امتناعى عن زيارته قال : « لا عليك
وخلّ عنك هذا الوهم فلا تغير شيئاً من عادتك ! »

وزرته بعد ذلك مرات والمفتش عنده ، وكان يدننى إليه فى مجلسه ، ويجعل
كرسىّ إلى جانب كرسيه خلف المكتب ، ويتأبى على المفتش أن يذهب إليه حيث
يكون ، ليحمله على الحضور بنفسه ليسأله عما يريد من غير أن يغادر مجلسه ؛
وفى أحيان كثيرة كان يحضر إليه المفتش وأنا فى مجلسه ليسأله عن أمر من الأمور ،
فيدعه الرافى واقفاً ويتحدث إليه وهو جالس حديثاً كله سخرية وتهكم ، ثم لا ينظر
إليه إلا ريثما يجيبه عما سأل ، ثم يفضى عنه ويدعه واقفاً ، ليعود إلى ما كان فيه
من الحديث مى أو المطالعة فى صحيفة أو كتاب !

وعلى أن المفتش لم يظفر بشيء مما أراد بالرافى ، فإنه استطاع أن يشغله بنفسه
ثلاثة أشهر أو يزيد ، على رغم ما كان يبدو على الرافى من إهمال شأنه وعدم
الاكتراث به !

... ثم انتهت قضية قطعة الأرض إلى الحكم للرافى ، وانتهت كذلك دورة
التفتيش على غير طائل ؛ ولكن هذه وتلك قد شغلنا الرافى شطراً كبيراً
من سنة ١٩٣٥ ، وأوحت إليه بكلمات وكلمات مما نشر لقراء الرسالة فى هذه الفترة

... ولم يفرغ بعد كل أولئك مما يتصل بموضوع الزواج وشئون الأسرة ،

فكانت القصة التالية « زوجة إمام » : الإمام أبو محمد سليمان الأعمش ، وزوجه ، وتلميذه أبو معاوية الضرير .

قصة أراد بها أن يستوفي موضوع الزواج بالحديث إلى النساء عن واجب الزوجة . وبها تم ما أملاه على في موضوع الزواج ، وعدته ثلاث عشرة مقالة أولها مقالة « س . ا . ع » وآخرها الجزء الثاني من « قصة إمام »

وددت لو أن الرافعي حين أعاد نشر هذه المقالات في وحي القلم ، نشرها على الترتيب الذي كانت به والذي رويت ما أعرف من أسبابه الظاهرة ؛ فإن ذلك كان خليقاً أن يعين الباحث على دراستها مجتمعة متساوقة فصولها فصلاً إلى فصل ؛ ولكنه جمعها في وحي القلم على ترتيب رآه ، فجعل منها القصة ، والمقالة ، والحديث الديني ؛ وجعل كلا من هذه الثلاثة في باب ؛ على أن ذلك لا يمنع الباحث الذي يتهيأ للرأي في هذه المقالات أن يقرأها على الترتيب الذي قدمت أسبابه وأسبابها معه .

كان الرافعي قلماً يجلس إلى مكتبه في المحكمة إلا أن يكون له عمل ؛ فإذا لم يجد له عملاً في المحكمة انصرف لوقته إلى حيث يشاء غير مقيد بموعد من مواعيد الوظيفة . وكان يزورني أحياناً في المدرسة ليقضى معي وقتاً من الوقت أو ليصحبني لبعض حاجته . وكان يغبطني على عملي ويزعم أنه لو كان في مثل هذا الجو المدرسي لوجد لنفسه كل يوم مادة تلهمه الفكر والبيان ؛ ويعجب لي كيف لا أجد في صحبة هؤلاء الصغار الذين يعيشون في حقيقة الحياة ما يوقظ في نفسي معنى الشعر والحكمة والفلسفة ...

وزارني يوماً ، وكان من تلاميذي في المدرسة طفل في العاشرة أبوه من ذوى الحول والسلطان ؛ فكان يصحبه شرطياً كل يوم إلى المدرسة ويعود به ، وكان فتى لنا ، فيه طراوة وأثوثة ، وله دلال وصلف ، فاتفق أن حضر إلى شأن ما والرافعي معي ، ووقف الشرطي ينتظره على مقربة من مجلسنا ؛ ونظر الرافعي إليه .

وقد وقف يكلمنى وهو يتثنى ويتخلع لا يكاد يتقارّ فى موضعه ...
ثم انصرف الغلام وانصرف الشرطى وراءه يحمل حقيبته ، والتفت الرافى إلى
يسألنى : « ... وبين تلاميذك كثير من مثل هذا السّمعون ؟ »
وكلمة « سمعون » عند الرافى هى عَلم مشترك لكل فتى جميل . وتاريخ هذا
الاسم قديم ، يرجع إلى أيام صلة الرافى بالرحوم الكاظمى الشاعر ؛ إذ كان
الكاظمى له صديق من الغلمان يحبه ويؤثره ويخصه بالسر ... وكان اسمه
« سمعون » حدثنى الرافى عنه قال : « وكان فتى جميلاً لولا ثياب الغلمان لحسبته
أنّى ... ! » ورآه الرافى كثيراً فى صحبة الكاظمى ، فوعى اسمه وصورته ،
ثم كان اسمه عند الرافى من بعدُ علماً على كل غلام متأثّر ...
... قلت للرافى : « هذا ابن فلان الحاكم ، وهذا الشرطى الذى يتبعه هو
من جنود أبيه ، وإن من خبره ... »

قال الرافى : « وهذا موضوع جديد ! »
فهذا كان سبب إنشائه قصة « الطفولتان »

وكان الرافى يؤمن بالغيب إيماناً عميقاً لا ينفذ إليه الشك . وكان له عن
الشياطين والملائكة ، وعن الوحي والإلهام ، وعن تجاوب الأرواح فى اليقظة
والنوم ، أحاديث ينكرها كثير من شباب هذا الجيل ...
... وكان له — إلى إيمانه وتديّنه — نزوات بشرية تعقبها التوبة والندم ،
فكان أكثر وقته على تربص دائم من وسوسة الشيطان ، فكان إذا مرت أمامه
امرأة فأتبعها عينيه ، أو سمع حديثاً عن غائب فتعقبه بالحديث عن بعض شأنه ،
أو ناله أحد بمساءة فردّها إليه ، استعاذ وحوقل ، وقال : هذا من عمل الشيطان !
وإذا همت نفسه بشيء تنكره المروءة ، أو دعت داعية من هواه إلى ما يتحرج منه
المؤمن ، أو صرفه شأن من شئون الحياة عن واجب من واجبه ، حمل نفسه على
ما لا تحتمل ، وأنكر على نفسه ما همت به أو دعت إليه أو انصرف عنه ، وذم

الشیطان وتجنی علیه الذنب . وفى مقالته « دعاية إبلیس » حدیث یحقق هذا المعنى ... فأنى لکمه ذات مساء إذ جاءه البرید برسالة من آنسة فى دمشق ، ومنعها صورتها مهداة إلیه ، تبثه لواعجها وأشجانها ، وتشکو إلیه أنها .. مفتقرة إلی رجل ! ونظر الرافعى إلی صورة الفتاة فأطال النظر ، ووقف الشیطان بینہ و بین الصورة یحاول أن یزیدها فى وهمه حسناً إلی حسن ، ویرسم له خطة ... ثم وضع الرافعى الصورة فى غلافها وهو یقول : « أعوذ بالله من الشیطان ... أَمَا إِنَّه ... »

وقال شاب فى المجلس : « وهل الشیطان إلا هوى النفس ؟ »

وقال الرافعى : « وهل تنکر .. ؟ »

وطال الجدل ، ومضى الحدیث فى فنون ...

من هذا الحدیث وهذه الحادثة كانت مقالة « الشیطان »

وكان لولده سامى زوج لم یدخل بها ، وقد مرضت بذات الصدر بعد ما سماها وعقد علیها ؛ فأقامت زمناً فى مصحة حلوان ؛ ثم ارتدت إلی طنطا لتقیم بین أسرتهما ما بقى ، وزوجها حتى بها قائم علی شئونها ، ثم جاء أجلها فدعى الرافعى لیراها ، فجلس إلی جانبها لحظات وهى تحتضر ، فكان له من هذا المجلس القصیر ، مقالة « عروس ترَفَّ إلی قبرها ! »

كنت لیلتنذ علی موعد معه فى القهوة ، فظلمت أنتظره ساعات ، ولم یخلف الرافعى مواعده مئى مرة من قبل ، فلما طال بی الانتظار مضیت لشأنى . وفى الصبح جاءنى نعى الفتاة ، فعرفت عذره ؛ فلما كان العصر ذهبت فى نفر من الأصحاب لتعزیته فى دار صهره ، والتمسناه فما وجدناه ، وسألنا عنه فعرفنا أنه آب إلی داره بعد الجنائزة لبعض شأنه ؛ ولقیته بعدها ، فعرفت أنه ترك المأتم والمعزین لیفرغ لكتابة مقاله قبل أن تذهب معانیه من نفسه !

یرحمه الله / لم یکن یمر به حادث یألم له ، أو یقع له حظ یُسَرُّ به ، إلا كان له

من هذا وذلك مادة للفكر والبيان ، وكأنما كل ما في الحياة من مسرات وآلام مسخر لفنه ؛ فهي للناس مسرات وآلام ، وهي له أقدار مقدورة ليدع بها ما يبدع في تصوير الحياة على طبيعتها وفي شتى ألوانها ، ليزيد بها في البيان العربي ثروة تبقى على العصور ، وهو إخلاص للفن لم أعرفه في أحد غير الرافعي !

وإذ ذكرت السبب الذي دعا الرافعي إلى إنشاء مقالة « عروس تزف إلى قبرها ! » أراني مسوقاً إلى ذكر حديث بيني وبين الرافعي يتصل بهذا الموضوع ، وإنه ليدل على خلق الرافعي وطبعه ، وهو بسبب مما سمعته فيه من قبل « فلسفة الرضا »

لم يكن لأحد رأى في خطبة هذه العروس إلى سامي ، ولكنه هو خطبها لنفسه ، وكان يحبها ويرجوها لنفسه من زمان ، ولم يكن بينهما حجاب ، فإنها بنت خاله ؛ فلما أجمع أمره على خطبتها بعد ما تخرج وصار له مرتب يكفيه ^(١) ، ذهب يعرض أمره على والده ، فعارضه فيما ذهب إليه لسبب سببه ، ولكنه مع اعتداده برأيه في هذه المعارضة ، تركه لهواه ولم يفرض عليه رأيه ؛ إذ كان يرى من حق ولده أن يختار زوجته لنفسه ، فليس له عليه في هذا الشأن إلا أن يبدل له النصيح ، ثم يدع له الخيرة في أمره .

وخطب سامي فتاته ، وعقد عقده . وكان حموه يعمل في مال فأكلته الأزمة ، وقدر عليه رزقه بعد سعة ؛ ثم مرضت الفتاة مرضها ، فأكرمها زوجها وقام على شئونها ، وأنفق ما أنفق في طبها وعلاجها سنتين أو يزيد ، بين طنطا وحلوان ؛ وتداغت فنون الحديث يوماً بيني وبين الرافعي حتى جاء ذكر سامي وزوجته ، وكانت ما تزال في مصحة حلوان ؛ فقال لي الرافعي : « انظر ! إنها حكمة الله فيما يجري به القدر ! ضلّت البشرية إن هي حاولت النفاذ إلى الغيب لتتحكم في أقدار الناس ... ليس للانسان خيرة من أمره ، ولكنه قدر مقدور منذ الأزل يربط

(١) كان سامي مبدءاً في كاية الزراعة قبل أن يذهب في بنة الجامعة إلى أمريكا

أسباباً بأسباب ، ويجرى بالحياة وحدة متماسكة ، فما يجرى هنا هو بسبب مما يجرى هناك ، فلا انفصال لشيء منها عن شيء ... ترى منذ كان ينفق على هذه المسكينة ليطلب لها من دأها لو لم تكن الأقدار قد أحكمت نظامها وكان سامي هو زوجها؟ هل كان إصراره على الزواج منها بعد ما قدمت له من الرأي والنصيحة إلا لأنه في تدبير القدر مرجوٌ لهذا الواجب من بعد . لقد كنت مستيقناً من أول يوم أن من وراء هذا الزواج حكمة خافية ، وإنني اليوم وقد انكشف لي هذا السر العجيب في حكمته البالغة ، لأشعر بكثير من الرضى إلى ما كان ! »

ثم كتب مقالة « بين خروفين »

وهي تمت بسبب إلى مقالة « حديث قطين » ؛ وفيها حديث عن ولده عبدالرحمن وهو أصغر بنيه ؛ وكان الرافى يرجوه ليكون من أهل الأدب ؛ فما يزال يستحثه ويحمله على الدأب والمثابرة ليكون كما يرجواؤه ، ويحمله بذلك الرجاء على ما لا يحتمل . وكان (الإيحاء) هو وسيلة الرافى إلى تشجيعه وتحميسه إلى العمل ؛ ويبدو مثل من هذا الإيحاء فيما تحدث به الرافى عنه في أول ذلك المقال .

وكان الرافى معنياً بمستقبل أولاده عناية كبيرة ، فكان يحملهم على العمل بوسائل شتى . وكثيراً ما كان يرسم لهم الخطة للتحصيل والمذاكرة ، وقد وجدت بين أوراقه حديثاً له إلى ولده إبراهيم ينصحه ويرسم له منهجاً ليهيئ نفسه للامتحان ، لو أنه اتبعه لكان اليوم غير ما هو !

ومن أجل أولاده أنشأ كثيراً من المقالات عن عيوب الامتحانات لمناسبات مختلفة كان ينشرها في المقطم ؛ وكانت له طلبات ومقترحات إلى وزارة المعارف أجابت أكثرها ولم ينتفع بها أحد من ولده ومن أجلهم أنشأها !

أنشأ هذه المقالة قبيل عيد الأضحى ، وكان اشترى خروفين للتضحية أودعهما فوق سطح الدار إلى ميعاد ؛ فأنزعه إلى كتابة هذا المقال إلا هذان الخروفان ، ثم حاجته إلى أن يقدم إلى ولده نموذجاً في الإنشاء يمينه على بعض واجبه المدرسى

وكان للرافى رأى فيما تنقل الصحف من أخبار تركيا، تفسره مقالة «تاريخ يتكلم» وقد دعاه إلى إنشاء هذا المقال أخبار تناقلتها الصحف فى ذلك الوقت عن أحداث تجرى فى تركيا ، رأى فيها مشابه من حوادث سبقتها فى مصر قبل ذلك بألف سنة فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى .

وفى أحيان كثيرة كانت تثور نفس الرافى لما يستمع من أخبار تركيا فيهم أن يكتب ، ثم يمنعه ذلك خشيتُه أن يكون فيما يكتبه شئ يقفه موقف المستول عن غلطة تمكر صفاء ما بين الدولتين ؛ ثم جاءت مناسبة هذه المقالة فأنشأها وجعل الحديث فيها عن الحاكم بأمر الله، وهو يعنى رئيس الجمهورية التركية ؛ وكانت هذه التعمية وسيلته ليتهرب من التبعة السياسية ، ومنها كان الغموض فى كثير من معانى هذا المقال ؛ فمن شاء فليعد إليه ليقراء وقد عرف داعيه ، فلعله لا يجد غموضاً فيه من بعد .

ومن أجل هذا السبب ولهذا المقصد نفسه ، كان مقاله « كفر الدبابة » الذى أنشأه على أسلوب كليل ودمنة بعد ذلك بأشهر .

ثم هلّ هلال المحرم ، وتهيأت الرسالة لإصدار (العدد الممتاز) فى ذكرى الهجرة ، فكتبتُ إلى الرافى فيمن كتبت من أسرة الرسالة ، تطلب إليه أن يهيّ موضوعاً مناسباً لذكرى الهجرة ، وضربت له أجلاً . واستبق الرافى الميعاد فأعد قصة « اليمامتان » وبعث بها إلى الرسالة قبل موعد العدد الممتاز بأكثر من أسبوع . وحسبت الرسالة أنه بعث إليها بمقاله الأسبوعى المعتاد ، وأنه ما يزال يعدّ موضوعه للعدد الممتاز ، فنشرت قصة اليمامتين قبل موعدها ، وكتبت إليه تستنجزه المقال الثانى . وكان الرافى متعب الأعصاب ، يشكو وجعاً فى أضراسه يثقل رأسه ، وقد غاظه أن الرسالة فوتت عليه الفرصة فسبقت إلى نشر القصة التى أعدها للعدد الممتاز قبل موعدها وتركته فى حيرته ، ولم يجد فى نفسه خفة إلى العمل ، فذهب إلى أوراقه القديمة يفتش بينها عن موضوع خلىق بالنشر فى هذه المناسبة ، فوقع

على مقالة « حقيقة المسلم » ، وكان كتبها قبل ذلك بسنتين إجابة لدعوة جمعية الكشف المسلم بالشام ، ونشرها بالأهرام في ذكرى المولد النبوي لسنة ١٣٥٢ هـ فبعث بها إلى الرسالة لتنشر في العدد الممتاز لسنة ١٣٥٤ هـ

يتحدث الرافى فى قصة اليمامتين عن الفتح الإسلامى ، وأخلاق العرب ، وتعريب مصر الفرعونية الرومانية ، وافتتان القبط بسجايا العرب ومزايا الإسلام ؛ وفيها إلى ذلك حديث عجيب عن الحب والمرأة فى قصة خيالية افتعلها ليبلغ بها ما فى نفسه من معانى الحب ؛ ثم جعل فى خاتمها « نشيد اليمامة » : اليمامة التى تقول الرواية العربية إنها تحرمت فى جوار عمرو بن العاص فمنعته أن يقوّض فسطاطه ! كان لهذه القصة عند الرافى وعند كثير من قراء الرسالة موقع لم تبلغه قصة سعيد بن المسيب . وقد افتتن بها القراء ، حتى كان منها أن اهتدى إلى الإسلام أستاذ مسيحي من أساتذة التاريخ فى بلاد الجزائر ، فكتب إلى الرافى رسالة يعلن فيها إليه إسلامه ، ويسأله الوسيلة إلى دراسة هذا الدين والتفقه فيه . ولم أعتز بعد على هذه الرسالة بين ما خلف الرافى من رسائل أصدقائه إليه

ومن اعتداد الرافى بهذه القصة وبما بلغ فيها من التوفيق ، جعلها فاتحة الجزء الأول من كتابه « وحى القلم » .

ولم يكفه أسبوع للاستجمام والخلاص مما يعانى من وجع الضرس وتعب الأعصاب ، فاستراح أسبوعاً آخر وبعث إلى الرسالة بالجزء الثالث من « كلمة وكليمة »

ثم وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافى اهتزازاً عنيفاً ونقلته من حال إلى حال : جلست يوماً إليه نتحدث من أحاديثنا فقال : « ... إن صديقنا الأستاذ (م) لم يكتب إلينا من زمان ... ليت شعري ما منعه عنا ! إن بي قلقاً عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره ! »

وفى صبيحة اليوم التالى طالعنا الأهرام بخبر غامض : « ... أن شاباً من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده ! .. »

وقرأ الرافعي الخبر فارتدَّ وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : « اقرأ ، إنه هو ... ! »
قلت : « من تعنى ؟ »

قال : « صديقنا (م) لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره . غفر الله له ؟ »
فجزعتُ وطارَت نفسي ، وقلت له وأكاد أغصُّ بريقى : « م ؟ إنك لتتوهم ،
وإنك مما تفكر في شأنه ليُخيَّل إليك . إن لصديقنا لديناً ، وإن فيه لتحرُّجاً
وخشية ، وما أراه في أى أحواله يقدم على مثل هذه الجريمة »

ولكن الرافعي لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوِّق ويسترجع ويستعيز بالله
من غلبة الهوى وفتنة الشيطان . ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى م يسأل
عن حاله وخبره ويرجو له العافية في دينه ودنياه ؛ ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان
منه وما حمَّله عليه وما آل إليه أمره ؛ ولم ينس مع كل أولئك ومع ما تفيض به نفسه
من الحزن والألم أن يرجوه « الدقة في وصف المرحلة التي كان فيها بين الحياة
والموت ، فإنها المرحلة التي لا يحسن أن يصفها إلا من أحسَّ بها ... »

وصديقنا الأستاذ . م . أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تخرج
وخشية ؛ وقد نشأ في بيت له ماضٍ في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والدَّود عن
حرماته ، وهو شاب عذب ، بعيد الخيال ، دقيق الحس ، مرهف الأعصاب ؛ وعلى
أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابغة ، فإنه من سعة خياله ودقة حسه وحدة
أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفيناً
من معاني الألم ، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريباً في هذا العالم وبين هذا
الناس ، فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالماً غير هذا العالم ، يتمثل فيه
المثل الأعلى الذي أعياء أن يبلغه على هذه الأرض . وكان بينه وبين الرافعي ودٌّ
وله في نفسه مكان ؛ فكان له سره ونجواه منذ كان فتى يافعاً لم يبلغ العشرين .
وكان الرافعي يمتدُّ بصداقته ويقرُّ إليه ويُعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلاً
مجيداً بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

فلما بلغ الرافعي نبأ شروعه في الانتحار جزع وتطير وضاحت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينله لحادثة مما لقي من دنياه . فمن أجل هذه الحادثة أنشأ الرافعي مقالات « الانتحار » .

ولم يكن الرافعي يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ؛ فأخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبني عليها الحديث والقصة ؛ فاجاء جواب الأستاذ (م) إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث في هذا الجزء على لسان « أبي محمد البصري » وهو يعني به الأستاذ (م) ، فهو هو وكلامه كلامه في جملته ومعناه ، لم يغير منه الرافعي إلا قليلاً من قليل ، فما يدل على حالة صاحبنا إلا المقالة الرابعة من هذه المقالات الست ، أما ما عداها مما سبق أو لحق ، فهي قصص مفتعلة من وحي هذه الحادثة في نفسه

ومقالات الرافعي في « الانتحار » هي باب من الأدب لم ينسج على منواله في العربية ؛ فيها فنه القصصي ، وفيها روح المؤمن الذي لم تفتنه دنياه عن ربه ؛ وفيها إلى ذلك شعر وفلسفة وحكمة ، وقلب رجل يعيش في حقيقة الحياة

وكان بين الرافعي والأستاذ حسن مظهر محرر اللطائف المصورة مودة . فلما تولى تحرير اللطائف كتب إلى الرافعي يرجوه أن يكتب فصلاً لقراء اللطائف عن « سحر المرأة » ؛ فكتب فصلاً بديعاً يصف فيه نفسه وصاحبته (فلانة) في أول لقاء بينهما

فلما فرغ من مقالات « الانتحار » تناول هذا الفصل فزاد فيه ما زاد وبعث به إلى الرسالة بعنوان « ورقة ورد » لأنه سار فيه على نهج كتابه المعروف « أوراق الورد » فهذا الفصل عنده هو من تمام هذا الكتاب

وكان من زملاء الرافعي في محكمة طنطا الأديب فؤاد ... وهو شاب له ولوع

بالأدب . وعلى أنه زوج وأب ، فإنه كان بآفاقته ولباقته مرعى أنظار كثير من الفتيات ، وكان له في الغرام جولان ...

ثم فاء إلى نفسه بعد حين ، فانصرف عن اللهو والغزل إلى شئون أسرته وولده ؛ وراح ينشر بعض مغامراته الغرامية في إحدى الصحف الصغيرة التي تصدر في طنطا ...

وقرأ الرافى بعض ما ينشر صاحبنا ، فرأى « علماً جديداً » لم يدخل إليه من باب ولم يقرأه في كتاب ؛ فأرسل يستدعى صاحب هذه المقالات إليه ليُفيد علماً من علمه ومن تجاربه ... !

وجلس صاحبنا يتحدث إلى الرافى ويقص عليه ، والرافى صاغ إليه ملذوذ بما يسمع ؛ فما انتهى صاحبنا من حديثه حتى كان على موعد مع الرافى أن يُحضر له طائفة من مذكراته ورسائل صوابه ، لعله يجد فيها موضوعاً يكتبه لقراء الرسالة فن هذه المذكرات ومن هذه الرسائل استملى الرافى مقالات « الطائشة » و « دموع من رسائل الطائشة » و « فلسفة الطائشة »

هى قصة حقيقية لا افتعال فيها ، وليس فيها شيء من صنع الخيال ؛ وما حكى الرافى من رسائل الطائشة هو من رسائلها نفسها كما نقلها إليه صاحبها ؛ وفلسفتها هى فلسفتها كما فهمها الرافى من رسائلها ومما كان من أمرها مع صاحبها .

ولقد نال الرافى من ملامة الفتيات ما ناله بسبب هذه المقالات ، وقرأها أكثر من قرأها منهن على أنها قصة من الخيال اخترعها الرافى ليحتج بها فيما يحتج لمذهبه فى الحب والمرأة وتجديد الأخلاق . والحقيقة فيها هى ما قدّمت ؛ وقد زاد الرافى إيماناً بمذهبه بعد هذا الذى سمع من صاحبه وقرأ من مذكراته ومن رسائله !

ولم يكتب الرافى قصة « الطائشة » على أنها قصة ؛ إذ كان صاحبها قد كتب قصتها على طريقة من فنه ؛ فأثر الرافى أن يتناولها من أطرافها ليحكم بها حكمه ويتحدث عن رأيه فى طائفة من فتيات العصر ؛ فترك صلب القصة ليكون حديثه عن التعليق والحاشية .

وقد قرأت القصة مع الرافى كما أنشأها كاتبها ؛ فكان الرافى يقف عند كثير من عباراتها موقفاً بين الإعجاب والدهشة ؛ إذ كان مؤلفها يكتب ما فى نفسه كما هو فى نفسه ، فكان فيها وحى عاطفته ونبض قلبه ويقظة روحه ، فجاء بأدق ما فى الفن وأبلغ ما فى التعبير غير قاصد إلى شىء من ذلك ، وما كان يبلغ شيئاً من ذلك لو أنه قصد إليه ؛ إذ لم يكن هو بين أهل البيان فى هذه المنزلة ، ولكنه كان من أهل الحب ؛ وكان هذا هو دليل الصدق عند الرافى فيما كتب صاحبه وما نقل إليه من قصة صاحبه .

ولما كتب المقالة الثالثة « دموع من رسائل الطائشة » خلا إلى نفسه أسبوعاً ليستجم ، وبعث إلى الرسالة بالجزء الرابع من : « كلمة وكليمة » وفيها حديث عن العقاد^(١)

وفى هذا الأسبوع كان الرافى يجمع خواطره حول ما سمع من قصة الطائشة ، فأنشأ مقاله الرابع بعنوان « فلسفة الطائشة » ثم أملى على مقالة « كفر الذبابة » يعنى بها الحكومة التركية لبعض ما ذهبت إليه فى شئون الإسلام والعربية . وهى آخر ما أنشأ من الفصول على أسلوب كليل ودمنة .

وكانت مقالة « كفر الذبابة » هى آخر ما أملى على من المقالات ؛ وذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ . ثم تهيأ للسفر إلى مصيفه فى « سيدى بشر » ، وتهيأت للسفر إلى القاهرة لبعض شئون العمل المدرسى . وانتقلت بعدها إلى القاهرة فكانت فيها إقامتى ، فلم أكن ألقاه أو يلقانى إلا ساعات كل أسبوع : فأُسبوعاً أزوره فى طنطا ، وأسبوعاً يزورنى فى القاهرة . على أن الرسائل فيما بين ذلك لم تنقطع بيننا حتى يناير سنة ١٩٣٧ ، قبل موته ببضعة أشهر . ثم تجافينا لشأن ما ، فما التقينا إلا مرة واحدة قبل موته بشهرين ، وكان آخر مجلس لنا فى قهوة « بول نور » بالقاهرة مع الأصدقاء : شاكر ، وزكى مبارك ، وكامل حبيب ، وزيادة ؛ ثم افترقنا

بعد منتصف الليل وفي نفسى منه أشياء ... !
وفي صبيحة الغد بدأت الحركة الأخيرة بينه وبين الدكتور زكي مبارك حول
« وحى القلم »

... ومضى شهران بعد تلك الليلة لا ألقاه ولا يلقانى ؛ وهو يشكونى إلى
صحابتي وأشكوه ؛ حتى جاءنى نعيه ... غفر الله لى !
لكأنما كانت هذه القطيعة بيننا وقد دنا أجله ، لتخفف عني وقع المصاب
من بعد ؛ أو لتحملنى — غير محمول من أحد غير واجبي — على كفارة الذنب
الذى أذنبت بهذه القطيعة ؛ فأبذل ما فى الطاقة من الجهد الجاهد لكتابة التاريخ
لعلى أقوم له بعد موته بالحق الذى عجزت عن وفائه فى حياته . يرحمه الله !

... لم يُحمل على الرافى شيئاً بعد مقالة كفر الذبابة ؛ ولكنه طلب إلى أن
أنسخ له صورة من مقال كان نشره فى المقتطف قبل ذلك بسنوات عنوانه « سر
النبوغ فى الأدب »

فلما سافر إلى مصيفه بعث إلى الرسالة بمقالة « كلمات عن حافظ » مناسبة
ذكراه ؛ ثم أصابته قرحة فى كفه منعه من العمل ، فأخذ مقالة « سر النبوغ
فى الأدب » فجعل عنوانها « الأدب والأديب » ثم جعلها مقالة الأسبوع التالى .
وهى مقالة من مقالات الرافى الفريدة ، تهتم الباحث الذى يريد أن يدرس الرافى
صاحب « تاريخ آداب العرب »

ثم توالى مقالات الرافى عليها على نفسه ويكتبها بخطه ؛ على أنى بما كنت
ألقاه وبما كان بينى وبينه من الرسائل إلى ما قبل موته بأشهر ، لم يفتنى أن أعرف
دوافعه إلى كثير مما كتب بعد ذلك من المقالات لقراء الرسالة ؛ فسأحرص
— تماماً لهذا البحث — على أن أذكر ما أعرف من دوافع بعض المقالات التى
أنشأها وحده من بعد ، غير معتبر ترتيبها فى النشر ، إذ لا عماد لى فيما أكتب عنها
إلا الذاكرة .

من هذه المقالات : الجمال البائس ، القلب المسكين ، المشكلة ، المجنون ،
أحاديث الباشا .

أما مقالات « الجمال البائس » فقد أملاها عليه حبٌ جديدٌ ولىلى جديدة ؛
ولكنه حب كما وصف الرافى :

« ... وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً
فى الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى .
ثم لا تدفعنى إليه إلا فطرة الشعور والإحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ،
ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها غير
أنه هو منها ! »

« ... ولكنه عاشق ينير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحببته تحت أعين
الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ، ولا شىء غير ذلك ؛ ثم لا يزال
حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا .

« والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىء نهائى ؛ فلا هجر ولا وصل ، ينسلك
بعد ساعة ولكنك أبداً باقية بكل جمالك فى نفسه ، والصغائر التى تبكى الناس
وتتلعذ فى قلوبهم كالنار ليجمعوها كبيرة فى همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل
شهوات الحب ، تبكيه هو أيضاً وتعتلج فى قلبه ، ولكنها تظل عنده صغائر
ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبره على جبار الحب ! »^(١)

« حب ، هو سموٌ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السموات يتنوّر فى عوالمها
الخفية نور الإنسانية فى حقائقها العالية .
كان ذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الرافى بصطاف فى سيدى بشر ؛
ثم كان يقصد إلى الأسكندرية أحياناً ليلقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ ... »

فإن بينهما لصلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة ، منذ كان الأستاذ حافظ
حامياً في طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته في الأسكندرية ، مشغولاً بكتاب يهيم أن يصدره
في شأن من شئون الإسلام وكان الرافعي يعاونه في إنشائه ...
وكانا يتواعدان على اللقاء في ملهى من ملاهي الأسكندرية على شاطئ البحر ،
حيث تنهياً لها الفرصة ، من هدوء المكان في النهار وقلة إقبال الناس عليه ،
لما هما فيه من عمل .

في هذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة « بيا » فيعج كل مساء
بمن يفد إليه من طلاب الهوى والهوى ، ليفرغ للرافعي وصاحبه في النهار يُداولان
الرأى في شئون الأدب والدين والفلسفة . وشتان ليله ونهاره !

وكثر تردد الرافعي وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا ما فيه ،
وألفهما فيمن ألف فتاة من راقصات الفرقة ، هي الإيطالية الحسنة « ب ... »
فما كان بينها وبين الرافعي إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ...

وجلس الرافعي إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف
لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهد الأستاذ حافظ من بدايته إلى منتهاه ،
ثم ترك الرافعي لهواه وتركته صاحبه ...

وذاق الرافعي مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته الأخيرة
راقصة من بنات الهوى تعمل في مسرح هزلى من مسارح الصيف المتنقلة
بين شواطئ الأسكندرية ... !

تلك هي صاحبة « الجمال البائس »

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعي إلى طنطا ، وعادت الفرقة الراقصة إلى القاهرة ،
وشت ما بين الحبيبين !
ولقيت الرافعي بعدها ، فحدثني حديثه والكلمات ترتعش على شفثيه وفي عينيه

بريق عجيب ؛ ثم رقّ صوته وتهدج وهو يقول : « مسكينة ؛ ليتنى أستطيع أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر ... ليس موضعها هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات « الجمال البائس » فدعانى أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه ليراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له تذكريتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى « دار الهلال » وأبطأ عليه الرسول فلم ينتظر ، فهض ونهضتُ معه واتخذ طريقه إلى « عماد الدين » ... ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الإعلان وهو يسألنى : « أين اسمها ؟ وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هى ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها فى إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ، ما منهن إلا لها جمال وفتنة ، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ، إلى صورتها !

ثم تحول عن الباب مسرعاً عجلان وهو يجمع بكلام لا يبين . وقال لى وقد أسرعته إليه حتى حاذيته : « أيليق أن ندخل إلى هذا المكان ؟ أترأه من الروءة ؟ وددت لو رأيته ، ولكن ... »

وانتهينا إلى قهوة « بول نور » فجلس وجلس ، ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجمال ؛ فهاهى إلا لحظة ثم مرت بنا منحدره من شارع فؤاد إلى شارع سليمان باشا ، فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت فى مزدحم الناس ثم عاد إلى نجواه وشكواه ..

وجلس مرة يتحدث إلى صديقه الأستاذ حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات « الجمال البائس » فأهدى إليه صورتها ؛ فما زالت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة فتفهم ما كتب من مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !

وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمت ... ؟ أتراها قرأت .. ؟ »
وما أحسبه لقي صاحباً من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال البائس ..
جاست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم نتحدث عن الرافى ونذكر من
خبره فقص على ، قال :

« كان الرافى يجلس على هذا الكرسي ، من هذه الغرفة ، وكان ذلك قبل منعاه
بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بينى وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ
الرافى يصفها لى وصفاً لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول
على تصويرها كما هي فى نفسه ؛ فما كانت عندى بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها
من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة ما لم يجتمع مثله لامرأة ، وتمثلت
صورتها لعينى كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها ؛ قدم إلى صورتها
فى ورقة لأرى بعينى مصداق ما سمعت ... »

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التى صورها لى حديث
الرافى وإلى الصورة التى فى الورقة ، فكأنما استيقظت من حلم جميل ! ... يرحمه
الله ، لقد كان شاعراً ... ! »

كذلك كان سلطانها فى نفسه وأثرها فى خياله !

وكانت نشأة هذه الفتاة فى طنطا لأول عهدا بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة
قروية أقامت « خيمتها » فى طنطا بضع سنين ، ولم يكن الرافى يعلم ذلك حتى
عرفتها فى فرقة « بيا » ورأيت صورتها ؛ فلما أخبرته به أغمض عينيه وراح
فى فكر عميق ... أتراه كان ينظم شعراً لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟

والمعجب أن الرافى وهو فى غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبتة « فلانة »
ولم يفتر حبه لها ، بل أحسبه كان أكثر ذكراً لها وحينئذ إليها مما كان ، وكأنما
كان قلبه فى غفوة فأيقظه الحب الجديد وردّه إلى ما كان من ماضيه

لقد كان قلب الرافى عجيباً فى قلوب العشاق ؛ ليت من يستطيع أن يكشف
عن أعماقه !

وبسبيل من وحي هذا الحب الجديد وما أذكّره من ماضيه ، كانت قصة « القلب المسكين » التي نشرها في الرسالة نجوماً من بعد ؛ ثم ضمّها إلى أصول الجزء الثالث من وحي القلم الذي لم يُطبع بعد .

أما موضوع « المشكلة ^(١) » فقد استملاه الرافى من رسائل قرأه إليه . وصاحب هذه المشكلة هو صديقنا الأستاذ كامل وهى كانت أول صلته بالرافى ؛ ولقد كانت قبل أن يكتب إليه مشكلة اثنتين : هو وهى . فصارت من بعدُ مشكلتهما ومشكلة الرافى معهما إذ لم يجد لها حلاً . ولقد شغلته هذه المشكلة زمناً غير قصير ، ثم اتصل بموضوعها عن كُتب حين اتصلت أسبابها بصاحبها وصاحبته . وقد كتب الرافى ما كتب فى هذا الموضوع ، ثم مضى وخلف دنياه وما تزال هذه المشكلة قائمة تنشد من يحل عقدها ...

كان ذلك فى الحريف من سنة ١٩٣٥ حين جمعتنى ظروف العمل بصديق الأستاذ كامل ؛ فلم يمحض على تعارفنا أيام حتى استودعنى كل السر ...

... فقد أمه وهو غلام ، فلم يلبث غير قليل حتى حلت غيرها محلها فى بيت أبيه . وكان أكبر ثلاثة إخوة ، فاقتضاه حق أخويه عليه أن يستشعر معانى الرجولة وما يزال فى باكر الشباب . ورأى أبوه أن عليه شيئاً لهذا الرجل الصغير ، فسمّى عليه بنت خاله قبل أن يدرك ؛ ورأت تقاليد الريف الذى نشأ فيه أن عليها دوراً فى هذه القصة ، فحجبت الفتاة عن خطيبها ولما تبلغ التاسعة وأغلقت دونهما الباب ... ومضت سنوات وسنوات وسنوات وهو لا يراها ولا تراه ، وفرغ من حسابها بينه وبين نفسه ، ثم نسى ما كان وما ينبى أن يكون . وكان ينفصها بغض الطفل والطفلة ، فلما باعدت بينهما السنون انقطعت بينهما أسباب الكره والمحبة فلا يذكرها ولا يذكر شيئاً من خبرها ...

وانتهى الفتى إلى مدرسته العالية ، وابتعد عن أعين الحراس والرقباء فى القرية .

فمضى على وجهه فى القاهرة العظيمة يلتمس لذات الشباب ...

وكان له فكر وفلسفة ، وفيه خلق ودين ومروءة ، وبين جنبه قلب يحس ويشعر ويتأمل ؛ وعلى أنه كان يهين نفسه ليكون من أساتذة (العلوم) فإنه كان ولوعاً بالأدب مشغولاً بمطالعاته ، فكان له من ذلك روح وعاطفة ؛ وكان فى دمه ثورة وغليان ، وكان فى عقله مثال يريد أن يحققه ، وكان فى رأسه شعر يحتاج إلى بيان ؛ وكان له من كل أولئك قلب يتحفز لوثبة من وثبات الشباب فى قصة حب ؛ ثم لم يلبث أن اشتبك فى الملعمة ...

وأحب فتاة من بنات القاهرة وأحبته ، فما كان له من دنياه إلا الساعة التى يلتقيان فيها ، وما كان لها ...

وأجمع أمره على أن يتزوجها لينما بالحب ويحققا المثل الذى ينشدانه ؛ وكان قد مضى على الباب المغلق بينه وبين الفتاة المسماة عليه بضع عشرة سنة ... فما يذكروها ولا يفكر فيها ...

وكان نائماً يحلم حين ترمى الخبر إلى أبيه بما أجمع أمره عليه ، فما وجد أبوه وسيلة لإنقاذه إلا تعجيل زفافه إلى بنت خاله وفاءً بوعده مضى فى ذمة التاريخ ... ! غضب الفتى واحتج وثار كبرياؤه ورجولته ، وأبى أن ينزل على رأى أبيه فى شأن هو من خاصة شئونه ؛ ولكن الكثرة من أعمامه وأخواله قد غلبته على إرادته ، وساقته فى عماية إلى دار خاله ليزف على عروسه ثم يصحبها فى السيارة من ليلته مرغماً إلى بيته فى القاهرة ... وابتدأت المشكلة ...

... هذه الفتاة هى بنت خاله ، وهى زوجه أمام الله والناس ، ولكنه لا يحبها ؛ ولكنه لا يطيق أن ينظر إليها ؛ وإن فتاة أخرى تنتظره ؛ وإن عليه لها واجباً يحتمه عليه رجولته ...

وما أطاق أن يمنح زوجه نظرة أو يبادلها كلمة على طول الطريق حتى بلغت السيارة بهما الدار فى القاهرة ... كانت إلى جانبه ولكنه هناك ، عند صاحبه التى فتنه وأستولت عليه ؛ فما نظر إلى وجه زوجه لأول مرة منذ بضع عشرة سنة

إلا حين همت أن تنزل من السيارة لتدخل داره ...

وكان حرياً أن تثوب إليه نفسه حين نظر إليها فيعود إلى الحقيقة التي كتب عليه القدر أن يعيش فيها ، ولكنه لم يفعل ، وما رأى زوجته حينئذ إلا سَجَانَهُ الذي يحرمه أن يستمتع بالحرية التي وهبها له الله يوم وهب له الحياة ، وتأرّنت في نفسه البغضاء من يومئذ لهذه المسكينة ... !

وعاشت في بيته بضعة أشهر كما يعيش الضيف : لا يقاسمها الفراش ، ولا يؤاكلها على المائدة ، ولا يؤنسها من وحشها بكلمة ... فما تراه ولا يراها إلا في الصباح حين يخرج إلى عمله ، وفي المساء حين يعود إلى داره قبل منتصف الليل ؛ وما كان بينهما من صلة تجمعهما إلا البغضاء التي تؤج في صدره ، والحسرة التي تتسائل دموعاً من عينيها ، وإلا هذه الخادم التي تقوم لسيدها بشئونه وتقوم لها ...

ولم يفتر صاحبنا عن لقاء صاحبتة والاختلاف إلى ملتقاهما على أن ذلك لم يزد إلا ولوعاً بحبيبتة وتبرماً بزوجته ... ومضت الأيام تباعد من ناحية لتقرّب من ناحية ، حتى جاء اليوم الذي وجد صاحبنا فيه أنه غير قادر على احتمال هذه الحياة أكثر مما احتمل ... فمضى يدبر أمراً للخلاص من هذه المشكلة ، ولكن المشكلة زادت تعقيداً على الأيام ولم يجد وسيلة إلى الحل ... ! كان كل طريق يفكر فيه للخلاص محفوفاً بأشواك ؛ فلا هو يرضى أن يطلق زوجته ، ولا هو يطيق أن يهجر حبيبته ؛ وليس في استطاعته أن يجمع على نفسه همّين ؛ وكان تفكيره في ذلك همّاً ثالثاً يضنيه وينهك أعصابه ويعرق عظامه ! وكتب إلى الرافعي يستفتيه في مشكلته ...

كنت مع كامل حين كتب قصته إلى الرافعي ؛ وفي مساء اليوم التالي كنت في مجلس الرافعي بطنطا وبين يديه قصة صاحب المشكلة لم يفضّ غلافها بعد ... وقرأ الرافعي الرسالة ثم دفعها إليّ وهو يقول :

« ماذا ترى حلّ هذه المشكلة ؟ »

قلت : « لقد جهدت جهدي قبل اليوم فما أفلحت ! »

قال : « أو تعرف صاحب المشكلة إذن ... ؟ »

قلت : « نعم ، وما كتب إليك هذه الرسالة إلا برأى »
وأطرق الرافى هنيهة يفكر وفه إلى الكركرة (الشيشة) كما هى عادته حين
يستغرقه الفكر ، ثم رفع رأسه إلى قائلاً : « تعرف ؟ إن صاحبك لفتون بصاحبته
إلى درجة الحق والسفه ، وما تنحلّ هذه المشكلة إلا أن يكون له مع نفسه إرادة
صارمة ، وأن يكون له سلطان على هواه ، وهيهات أن يكون له ! فها هنا إلا وسيلة
واحدة تردّه إلى رشاده فتتحل المشكلة .. »

قلت : « فها هذه الوسيلة ؟ »

قال : « أن تدخل بينه وبين صاحبته دخول الشيطان فتفرق بينهما ... أترك
تستطيع ؟ »

فضحكت وقلت : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فإذا بدا له من سيئاتها ما ينكر ، وإذا بدا لها . . . انتهى ما بينهما
إلى القطيعة فيعود إلى زوجه نادماً ؛ وإن مرور الأيام لخليق أن يؤلف بينهما من بعد »
قلت : « فهمت ، ولكن ماذا ترانى أقول حتى أبلغ من نفسه ومن نفسها
ما تريد ؟ وهبنى عرفت أن أقول له فمن أين لى أن أستطيع لقاءها فأحدث إليها ؟ »
قال : « اسمع : أراها تقرأ ؟ »

قلت : « إننى لأعرف مما حدثنى عنها أنها قارئة أدبية ، وأنها من قراء الرسالة ،
وقد كان فيما أهدى صاحبها إليها كتاب أوراق الورد ، وأحسبها تنتظر ما تكتبه
فى هذه المشكلة ؛ فقد حدثها صاحبها أنه كتب إليك ... »

قال : « حسن ! فسأجرب أن أكون شيطاناً بينهما ، بل ملكاً يحاول
أن يرد الزوج الأبق إلى زوجته بوسيلة شيطانية .. ! »

وكتب الرافى المقالة الأولى من مقالات المشكلة ، وكان مدار القول فيها
أن ينتقص صاحب المشكلة ويعيبه وينسب إليه ما ليس فيه مما ينزل بمقدره عند

صاحبه ، ثم نشر أجزاء من رسالته إليه وإن فيها لكاً يعيبها ويثلبها ويضعها بإزاء صاحبها موضعاً لا ترضاه . فلما فرغ مما أراد جعل حديثه إلى القراء يسألهم أن يشاركوه في الرأي ويحكموا حكمهم على الفتى وفتاته بعد ما جهد في تصويرها الصورة التي أراد أن يكون عليها الحكم في محكمة الرأي العام ، وترك الباب مفتوحاً لترى صاحبة المشكلة رأيها في القضية فيمن يرى من القراء .

ولقيت صاحب المشكلة من الغد ، فسألني : « هل رأيت الرافعي »

قلت : « نعم ! »

قال : « ورسالتى إليه ! »

قلت : « بلفته ! »

قال : « وماذا يرى ؟ »

قلت : « ستقرأ رأيي في الرسالة بعد أيام ! »

وأخفيت عنه ما كان بيني وبين الرافعي من حديث وما دبر من خطة ... ونشرت المقالة الأولى من « المشكلة » ، ومضى يوم ، وجاء صاحبى غاضباً يقول : « كيف صنع الرافعي هذا ؟ لقد نحلني من القول ما لم أفل . أتراني قلت عنها كما يزعم : لقد خلطتني بنفسها حتى لو شئت أن أصل إليها في حرام وصلت ... ! لقد ساءها ما نحلني الرافعي من الكلام ، وقد تركتها الليلة غاضبة لاسبيل إلى رضاها ! » ... وتحقق للرافعي بعض ما أراد ، واثالت عليه رسائل القراء يرون رأيهم في هذه

المشكلة ، وجاءه فيما جاء من الرسائل ، رسالة من صاحبة المشكلة نفسها ...

وفعل برسالة صاحبة المشكلة ما فعل برسالة صاحبها ، ولكنه تلقاها تلقياً حسناً ، ومضى يتحدث عنها حديثاً ليس فيه من رأيها ولا مما تقصد إليه ، ولكنه إيحاء ، إيحاء إلى الفتاة بأنها في مرتبة أعلى ، وأن ما بها ليس حياً وإن زعمت لنفسها هذا الرأي ؛ ولكنه شيء يشبه أن يكون صورة عقلية لخيال بعيد تظنه من صور الحب وما هو به ... ثم مضى يفسح لها الطريق إلى الفرار من هذه المشكلة بالإيحاء والإغراء والحيلة ...

وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تعليقاً على آراء القراء وسخرية ونصيحة .
وفرغ الرافى من مقالات المشكلة فما هو إلا أن تلاشى الصدى حتى عاد فلان
وعادت فلانة ، وما تزال المشكلة تطلب من يحلها . ومضت سنوات وفي الآتون
ثلاثة قلوب تحترق . . . وعلى مقربة من النار صبي يحبو ينادى أباه ، وأبوه فى غفلة
الهوى والشباب . أترى إلى هذه المشكلة وقد دخل فيها هذا العضو الصغير الجديد
قد أوشكت أن تبلغ نهايتها ، فيكون حلها على يدى هذا الصغير وقد عجز الكبار
عن حلها بعد مجاهدة سنوات ؟ أم هو قلب رابع سينضم إلى القلوب المحترقة
فى آتون الشهوات .. !
ومعذرة إلى صديق كامل .. !

أما حديث « المجنون » فأعرف من سببه ما ذكر الرافى فى أول مقاله^(١) ؛
والمجنون فى هذه المقالات هو شخص حقيقى كما وصف واصفه ؛ رأيت لأول مرة
فى مجلس الرافى ذات مساء فى قهوة « لمنوس » ، فرأيت شاباً أمرد يلبس جلباباً
رخيصاً وعلى رأسه عمامة ، وقد جلس بين يدى الرافى مجلساً من لا يحترش ؛
فأنكرت موضعه ؛ وأشرت إلى الرافى أسأله ، فقال : « سَلُهُ أَنْتَ مَنْ يَكُونُ ؟ »
فالتفت الفتى مغضباً يسأل : « أو ليس يعرفنى ؟ أويُنكر موضع نابغة القرن
العشرين ... »

... ثم كان مجلس طويل وصفه الرافى فيما وصف من مجالس المجنون .
وهو فتى كان طالباً فى مدرسة المعلمين الأولية بطنطا ، ثم أصابه ما أصابه فأنقطع
عن المدرسة ولكنه لم يقطع صلته بالأدب . وصدقنا الأستاذ حسين مخلوف يعرف
هذا النابغة ، فإنه كان بين تلاميذه فى مدرسة المعلمين .

أما المجنون الآخر الذى وصف الرافى من حاله ما وصف بعد ، فهو طالب
فى إحدى كليات الأزهر . ولم ألقه أو أعرفه إلا بعد أن كتب الرافى عنه ما كتب :

كنت يوماً في إدارة الرسالة ، حين دخل علينا فتى أزهرى ، في جلباب حائل اللون ، فحيا وقال : « أأست تعرفنى ؟ »

فخبرنى هذا السؤال ولم أدرِ بِمَ أجيبه ، فقال : « إن بيننا نسباً وقرابة ، وإن بينى وبين الرافعى ... إبنى أنا الذى يكتب عنه الرافعى مقالات المجنون ! » قال ذلك وفى وجهه أمارات الجد ، وبدأ لى كأنه يفاخرنى بما يقول ! قلت : « ولكنى أعرف نابغة القرن العشرين معرفة النظر ! » قال : « نعم ، فهل عرفت الآن من يكون الآخر ... ؟ »

وقد كانت صلة الرافعى بهذين الفتيين باباً من العبث والمجانة ؛ على أنهما قد استطاعا أن يحملاه على العناية بأمرها والتفكير فى كتابة شىء عن المجانين ...

وقد احتفل لهذه المقالات احتفالاً كبيراً . فبعث لى فى القاهرة لأشترى له نسخة من كتاب « عقلاء المجانين » ؛ ثم بعثنى بكتاب خاص إلى الدكتور فؤاد بك مدير قسم الأمراض العقلية بوزارة الصحة — وكان زميله فى المدرسة الابتدائية — يرجوه أن يأذن لى فى زيارة مستشفى المجانين لأكتب إليه عن بعض طرائفهم ، لعله يجد فيها مادة تعينه على تمام موضوعه

ولم يَفُتْهُ مع ذلك أن يلتمس علم ما لم يعلم عند كثير من الأطباء ؛ فكان له حديث طويل عن المجانين مع الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور محمد الرافعى ، والدكتور عبد الحميد المحلاوى طبيب الأمراض العقلية بمستشفى الخانقاه وقد أفاد من حديثهم ، بعض النواذر الطريفة التى حكاها فى مقالاته ونسبها إلى نابغة القرن العشرين وزميله ؛ على أن أكثر ما فى هذه المقالات هو صحيح فى جملته وفى نسبه إلا بضع نواذر !

أما « أحاديث الباشا » فأكثرها خيال وأقلها حقيقة ، وقد اختار الرافعى أن يجعل بعض حديثه فى الشئون الاجتماعية على هذا النظم حتى لا يُعْمِلَ قراءه

وقد تخيل أخاه الأستاذ محمود الرافعي المحامي بدمهور ، كاتم سر الباشا الذي سَمَّاه ونسب إليه ، لأنه كان يستوحيه كثيراً من الحقائق فيما يكتب ، وقد كان الأستاذ محمود الرافعي في صدر أيامه زعيماً من زعماء الشباب في طنطا ، يقودهم ويرى لهم الرأي في مسائل الوطنية وتديرات السياسة في إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وكان يومئذ طالباً في مدرسة الحقوق

أما (م) باشا فلا أحسب له شخصية حقيقة كان منها وكان مما روى الرافعي ولكنها شخصية من تأليفه هو اصطنعها ليقول بلسانها ما قال :
على أن أكثر ما روى الرافعي من الروايات على لسان (م) باشا هو حقائق ، ولكنها لا تنسب جميعاً إلى شخص واحد

